

علم  
الثورة  
الدينية  
وعلم  
النور  
الاجتماعي



مطبوعات وكالة أنباء بوفوسنـى



علم  
الثورة  
المدينين  
وعلم  
النفاس  
الاجتماعي

مطبوعات وكالة انباء نوفوستي  
١٩٧٠

## **المحتـوىـات**

مع انجـاه ..... . . . . .	٤
الـفـوـيـةـ والـوعـىـ	١٠
الـناـحـيـةـ السـيـكـوـلـوـجـيـةـ	٤٥
تجـمـيـعـ الـأـمـزـجـةـ الثـوـرـيـةـ	٣٤
منـ الـثـوـرـةـ الـرـوـسـيـةـ الـأـولـىـ	٤٧
الـظـواـهـرـ وـالـمـهـامـ السـيـكـوـلـوـجـيـةـ	٥٩
الـسـيـكـوـلـوـجـيـاـ وـالـثـوـرـةـ	٧٢

تحوز قضايا السيكولوجيا الاجتماعية في السنوات الأخيرة على اهتمام كبير من جانب العلم السوفياتي . فاقامه العلاقات الشيوعية وتربيه الانسان الجديد لاتطلبان التأكيدات والتوصيات اليومية فحسب ، وإنما البحث في القضايا الأساسية حتما . والطابع الذاتي المعقّد للنضال الاجتماعي في بلدان الرأسمالية وفي الدول الوطنية الفتية يبعث كذلك على الاهتمام بهذه المسائل الأساسية للعلم السيكولوجي .

ان الدرس الذى تعطيه المؤلفات الليبنينية يعلم المؤرخين دراسة ديناميكية الأزمة الاجتماعية والبحث عن الجذور السيكولوجية للظواهر ، وتناول الواقع بكل ما تحويه من مدلول اجتماعى – سيكولوجي .

مؤلف هذا الكراس ، بوريس فيودورو فيتش بورشنيف ، هو مؤرخ سوفيتي شهير وعالم اجتماعي وفيلسوف ومؤلف كتب عديدة فى ميدان التاريخ والأنثروبولوجيا والانتوغرافيا وانسيكولوجيا ، وهو من اكبر العلماء المهتمين بنشر العلم بين الجماهير .

## مع الحيساة

الماركسيّة ، هي نظرية علمية صارمة لقوانين وشروط تطور الحياة الاجتماعيّة . وهي عبارة عن الوحدة ما بين التفكير النظري المجرد وما بين المعرفة المحددة نفسها . والماركسيّة ، إلى جانب ذلك ، هي حلم واندفاع . قال لينين مازحاً في كتابه «ما العمل؟» : «يجب أن نحلم ! لقد كتبت هذه الكلمات واتتبني الخوف » ، اذ تخيل اشتراكياً - ديمقراطياً متوجهماً بـسائل : « وهل يملك الماركسي الحق في أن يحلم أجمالاً ، ما دام لا ينسى أن البشرية ، بناء على تعاليم ماركس ، تضع لنفسها على الدوام مهام يمكن تحقيقها ، وبأن التاكتيك عبارة عن عملية تزايد المهام التي تنمو مع الحزب؟» إن لينين قد «جرب أن يتوارى» عن هذه الأسللة المتوعدة وراء الاستشهاد ببيساريف ، حيث يجري الحديث عن منطقية وضرورة وجود بعض الانقسام ما بين الواقع والحلم الذي يعنيه ، لأنّه لا يمكن على نحو آخر حتى مجرد تخيل الدوافع التي يمكن أن تحمل الإنسان على أن يباشر ويتابع إلى النهاية أعمالاً واسعة ومضنية في الفن والعلم أو في الحياة العملية . وقد كتب لينين : «إن التناقض ما بين الحلم والواقع لا يجلب أى ضرر ، فيما إذا كانت الشخصية الحاملة ، اذ تمعن النظر في الحياة بانتباها ، تؤمن جدياً بحلّتها ، وتقارن ما بين ملاحظاتها وقصورها المشينة في الواقع ، وبشكل عام تعمل بالخلاص على انجاز ما تخيله . وحين يكون هناك تماس ما بين الحلم والحياة ، تجري الأمور وقتها على

ما يرام » . وينتهي لينين الى القول بكل جدية : « هكلا ، فان هذا النوع من الاحلام ، لسوء الحظ ، قليل جدا في حركتنا » (١) .

ان آلاف السنين من الثقافة البشرية ، كانت انجازا اتراك الاحلام ، وقد تم باندفاع كبير وبحساب واع ايجاد طريق يصلها بالواقع ، وان كان هذا الطريق في غاية الصعوبة والتعقيد . اما الاحلام الاخرى ، فكانت الهزيمة من نصيبها . لقد كان النحات او المهندس المعماري يتفرس ويتأمل يرغبة ووعي ، بعناد وثبات في خواص الحجر واسراره الطبيعية ، ليجد فيها سبيلا لتجسيد حلمه . ووقتها فقط كان – على اية حال – يكتسب خطوطا واضحة وبشكل نهائي . ولكن كم هو اعظم وأصعب بالنسبة لكل الانجازات الابداعية الاخرى للناس ، تنفيذ فكرة اعادة تنظيم حياتهم الاجتماعية من الاساس وتنظيمهم هم انفسهم الى جانب ذلك ! هنا تلزم معرفة دقيقة وواضحة من كل الوجوه ، اذ ان مجال الرواية يجب ان يشمل القوانين الاقتصادية المجردة ، وكذلك كل المستويات الاخرى للاقتراب من الملوس منتهين بالخفقان الحى للمشارع البشرية .

لم يكن ف.ا.لينين سيكولوجيا محترفا على الاطلاق ، على الرغم من اننا نجد في مؤلف « من هم » « أصدقاء الشعب » ، « وكيف يحاربون الاشتراكيين – الديمقراطيين » رد فعل حار وحكيم على ظهور مؤلفات ستيشينوف وما احدثه من انقلاب في علم السيكولوجيا . وقد اشار لينين الى الفهم الجديد تماما للسيكولوجيا من قبل هذا العالم ، اذ انه اعطى تحليلا لعمليات سيكولوجية لم تكن موضع شرح فيما سبق . وهذه الملاحظات تشهد على أن لينين قد لاحظ وقيم في وقت مبكر جدا الاتجاهات

المادية التقدمية في السيكولوجيا الوطنية . ولكن هو نفسه كان سيكولوجيا بمعنى مفابر تماماً . وذلك ما تتطلب قضية الثورة البروليتارية وقضية الحزب من المعرفة الواضحة والحياة للحرkan النفسية التي تجري ضمن الجماهير الشعبية . فبدون هذا لم يكن ممكناً اجراء حساب كامل لتوزن القوى في كل لحظة من اللحظات المعينة . وبالنسبة للسيكونوجي ، فإن ذلك الواقع نفسه هو شيء مهم ، وهو أنه تنتشر في مؤلفات لينين ، خلال حياته كلها ، كنوز لا تنضب من الملاحظات الواقعية ، ولكنها مع ذلك غالباً مضخمة ومندفعـة بخصوص الأزمة وبخصوص التطورات والاحوال السيكولوجية لختلف فئات المجتمع في مختلف لحظات التاريخ .

ان الماركسيين العلنيين والاشتراكين الديمقراطيين ، المنشفة قد تكلموا أكثر من مرة عن الدور المهم لسيكولوجيا مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية وعن ضرورة اخذها بعين الاعتبار . ولكن الذي اثار اهتمامهم بشكل عجيب في انسيكلوجيا الاجتماعية هو فقط شيء واحد تقريباً ، وهو الذي يشهد - كما يزعمون - على عدم كفاية الخدمات الاجتماعية - السيكولوجية في الشعب لأجل الانقلاب الشوري العاجل . لقد اعتمهم القوالب النظرية عن رؤية اي شيء آخر . وانها لمبرة جداً بهذا الخصوص مناقشة لينين مع الاقتصادي البورجوازي والفيلسوف الروسي ب . ستروفي حول مسألة توفر هذه «الخدمات الاجتماعية - السيكولوجية (١) في روسيا لأجل الثورة .

كان ستيفن يقف ضد شعار الانتفاضة المسلحة على أساس ان الدعاية الجماهيرية للبر ناتج الديمقراطي فقط يمكن ان تكون الشروط الاجتماعية - السيكولوجية له . وقد شرح ليين مان

١١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٠ ، صفحة ٣٢٢ .

التكلم هكذا ، في تلك اللحظة حيث ابتدأت الثورة ، يعني النكوص إلى الخلف لمصلحة «البورجوازية اليسيرالية». قال موضحاً: « تماما كالثرثاريين البورجوازيين في برلين فرانكفورت عام ١٨٤٨ الذين انهمكوا بكتابة البلاغات والتصريحات والمقررات و « الدعاية الجماهيرية » وبتحضير « الشروط الاجتماعية - السيكلوجية » في ذلك الوقت ، حينما كان الأمر يقتضي مواجهة القوة المسلحة للحكومة ، وحينما كانت الحركة قد « ادت لحتمية » التضال المسلح » (١) . وقد طالب الإسيري المتنشف بيشيخونوف أن يزال من على « المسرح » شعار الاستعاضة عن الملكية بالجمهورية : « يجب ان نحسب حساب العامل السيكلوجي ... ان فكرة الملكية قد رسمت بثبات كبير في وعي الجماهير » ، « لابد ان نأخذ بعين الاعتبار هذه السيكلوجيا للجماهير الواسعة » ، « ان مسألة الجمهورية تتطلب اقصى الحذر » . هذا النوع من السيكلوجيا اثار مقاومة عنيفة من جانب لينين . اذ عوضا عن النضال الذي لا هوادة فيه ضد الخرافات الملكية ، فان بيشيخونوف كما يقول لينين ، « يستخلص من تقادم السوط ، فقط ضرورة الموقف « المتأهي الحذر » تجاه السوط ». وقد اوضح لينين بأن المهمة لا تنحصر في تملق هذه الفرائز الطبقية او تلك التي تقف عائقا في وجه الثورة ، بل على العكس في ان تبدأ على الفور بالنضال ضد هذه الفرائز (٢) .

وعلى خلاف الماركسيين العلنيين والمناشفة ، كان لينين ينهر حتى أصغر بوادر الامزجة الثورية وامكانية اندماجها في تيار واحد . وان حدة نظر لينين في كل مكان يمس الظواهر العميقة والوعيصة لحياة المجتمع النفسية ، لهى أحدى الشواهد على تطابق افكاره مع واقع الحياة . وهذه الحدة السيكلوجية كانت ملازمة

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١١ ، صفحة ٥٨ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٢ ، صفحة ٤٠٣-٤٠٠ .

له سواء في فترات نهوض الحركة الثورية أو هبوطها ، وسواء قبل اكتوير أو بعده .

تحدث لينين عن ضرورة دراسة الامانى الشعبية ، لأن السيكولوجيا الشعبية تتجلى فيها . وقد كتب في عام ١٩٢٠ : « ... يجب ان نتعلم معاملة الجماهير بصير وحذر خاصة ، لكي نستطيع ان نفهم الخصائص واللامع الفريدة لسيكولوجيا كل فئة ومهنة وما شابه ذلك لهذا الجمهور » (١) . ان الشروط الاقتصادية والاجتماعية لحياة كل طبقة وكل فئة وكل مهنة ، قد اكسبتها هذه او تلك من ملامع السيكولوجيا . ولهذا ، كما يرى لينين ، يجب ان يدخل الجانب السيكولوجي في تعريف ووصف البروليتاريا مثلا . وكان يرى بأنه يجب « تحديد مفهوم » العامل « بحيث يدخل ضمن هذا المفهوم فقط ذلك الذي يستوعب السيكولوجيا البروليتارية في الواقع ، بناء على وضعه المعاشي . وهذا من غير الممكن بدون سنوات عديدة من الاقامة في المصنع بدون آية اهداف غريبة ، بل ضمن الشروط العامة اظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية » (٢) .

في كل عمل محدد وفي كل عنصر من الممارسة الثورية ، كان لينين يتطلع الى التغلغل في المشاعر والسيكولوجيا ، وفي امزجة القوى الاجتماعية . « من فضلكم اكتبوا بسرعة ، ما هو مزاج الجمهور بهذاخصوص ... » — تلکم هي عبارة مميزة من مراساته (٣) . وهذا مثال آخر : كان على نائب العمال ان يعرف من خلال بعض العمال الطليعيين وذوى النفوذ « كيف تجري

---

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤١ ، صنعة ١٩٢ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٥ ، صنعة ٢٠ .

(٣) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٦ ، صنعة ٤٨٤ .

الأمود وكيف يفكر المال وما هو مزاج الجماهير ؟ » (١) . وكان  
لينين يشير الى المجال الربح لمصادر المعلومات بشأن السيكولوجيا  
الاجتماعية ، التي بدونها لا يمكن قيادة الحركة الجماهيرية . ولم  
يكن يستثنى كذلك الاستفادة من المصادر المعادية . « يجب بذلك  
كل القوى لجمع وفحص دراسة تلك المعطيات الموضوعية التي  
تناولت مسلك ومزاج الجماهير ، لا شخصيات وفتات معينة ،  
معطيات مأخوذة من مختلف الصحف المعادية ، معطيات تجيز لكل  
شخص متعلم مجال الاختيار . بمعطيات كهذه فقط ، يمكن  
للإنسان أن يتعلم ويدرس حركة طبقته » (٢) .

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ ، صنعة ٢٠٨ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٣ ، صنعة ٢٤٥ .

## ٢ - العفوية والوعي

جميع الماركسيين ، سواء أكان ذلك انطونيو لايربولا ، او افروست بيبيل ، روزا لوكمبورج ، او جيورجي فالينتينوفيتش ، بلخانوف ، جهودا في دعایتهم وتطويرهم للنماذج التاريخية ان يعرضوا بشكل ملموس الميكانيكية التي يتحقق بها القانون التالي : «الحياة الاجتماعية تحدد الوعي ». ولهذا ، فانهم جمima ، وبانتباه زائد كانوا ينظرون الى شيء لا يدرك للوهلة الاولى ، ولكنه يشغل مكانا ضروريا في تلك الميكانيكية - الى السيكلولوجيا الاجتماعية . وفي الواقع ، فان الوعي الاجتماعي لا يتكون من الايديولوجيا فحسب ، اي من انظريات والعقائد والأنظمة ، وانما من السيكلولوجيا كذلك . وان الاستخفاف بالسيكلولوجيا يؤدى الى تشويه التعليم حول البناءين ، التحتى والفوقى . ولا يمكن ، بشكل مقنع بعض الشيء ، ان تبعد من حالة اقتصادية معينة النتارات والأنظمة الفلسفية والدينية والجمالية المسيطرة على عقول الناس في وقت معين . ان محاولات كهذه قد ادت ببعض مؤرخي الثقافة الى قياسات مبسطة وفوتوغرافية ، كتفسير اسلوب عبد فاسيلي بلاجيني في موسكو ، ببساطة ووفرة البضائع التي كانت تباع في الساحة الحمراء . ان هذا التصور البسط عن الانعكاس الفوتوغرافي للبناء التحتى في البناء الفوقى ، كان اكثر المفكرين الماركسيين حبا للاستطلاع يعارضونه دوما بفكرة ان العلاقات الاجتماعية - الاقتصادية تحدد في الدرجة الاولى

لا الايديولوجيا ، وانما تحدد الطبقات العميقه وغير المنظمة  
للوعي الاجتماعي .

ان ج.ف. بليخانوف قد طور نظرية تقول ان حلقة الوصل  
ما بين التطور الاقتصادي وتاريخ الثقافة بالمعنى الواسع ، هي  
التغيرات في سلوكووجيا الناس المشروطة بالتطور الاجتماعي -  
الاقتصادي . وكما يرى انصار ذلك الرأى ، فان الافكار والثقافة  
ما هي الا تكتيف للسيكولوجيا الاجتماعية . في « مقالات حول  
تاريخ المادة » ، يقسم ج . ف . بليخانوف كل البناء الاجتماعي  
للمجتمع الى خمسة عناصر مرتبطة احدها بالآخر : « درجة التطور  
المعينة للقوى المنتجة ، علاقات الناس في عملية الانتاج الاجتماعي  
التي تحدها هذه الدرجة من التطور ، شكل المجتمع الذي يعبر  
عن علاقات الناس هذه ، الحالة المحددة للروح والاخلاق المتطابقة  
مع هذا الشكل للمجتمع ، الدين ، الفلسفة والادب والفن ، تلك  
الأشياء المتطابقة مع الكفاءات ووجهات الذوق ومع الميول الناجمة  
عن هذه الحالة » (١) . وكان ج . ف . بليخانوف يصر على انه  
بدون تلك الحلقة المسماة هنا « حالة الروح والاخلاق » ، والتي  
يسماها في مواضع اخرى « المزاج السائد للمشاعر والعقول » الذي  
يعرف على نحو اوسع ، كسيكولوجيا اجتماعية ، لا يمكن القيام  
- ولا بخطوة - بالدراسة العلمية لتاريخ الادب والفن والفلسفة  
وما شابه ذلك ... وقد كتب « لكي نفهم تاريخ الفكر العلمي او  
تاريخ الفن في بلد معين ، لا يكفي ان تكون على معرفة باقتصاده ،  
يجب ان نعرف الانتقال من الاقتصاد الى السيكولوجيا الاجتماعية

---

(١) ج.ف. بليخانوف . المؤلفات الفلسفية المختارة في خمسة مجلدات ،  
المجلد ٢ . موسكو ١٩٥٦ ، صفحة ١٧١ .

التي يستحيل بدون دراستها بانتباه وفهم التفسير المادي  
لتاريخ الايديولوجيا » (١) .

وفي موضع آخر ، صاغ بليخانوف هذه الفكرة بایجاز اکثر :  
« ان كل الايديولوجيات تملك جذرا مشتركا واحدا ، هو  
سيكولوجيا عصر معين » (٢) .

لقد كان بليخانوف والماركسيون الآخرون على حق في التأكيد  
بأن هذه الايديولوجيا الجديدة او تلك ، تنجم لا عن التغيرات  
الاقتصادية مباشرة ، ولكن على أساس السيكولوجيا الاجتماعية  
كتكثيف فكري لها . والمعنى صحيح ذلك ، فان الايديولوجيا  
تؤثر بصورة عميقة على السيكولوجيا الاجتماعية . وبتعبير آخر :  
فإن كلتا المجموعتين من الظواهر تتفاعل فيما بينها . وإذا أخذنا  
ننظر الى الايديولوجيا كتكثيف للسيكولوجيا الاجتماعية فقط ،  
تندم امكانية تصور العاقب والمنطق الداخلي النسبي في تطور  
الايديولوجيا من مرحلة الى أخرى ، ومن الواضح ، أنه من الاصح  
ان نعتبر أن جانبي الوعي الاجتماعي كليهما والحالة النفسية  
والافكار يملك كل منها بناءه وقوانينه الخاصة . ولكن الذى يدفعها  
إلى الحركة ، أو على العكس ، يعرقل تطورها ، هي الظواهر  
الاجتماعية السيكولوجية التي تتطور على هذا الأساس الاجتماعي -  
الاقتصادي أو ذاك .

نوه ف. او. لينين أكثر من مرة الى ولادة المشاعر والأمزجة  
والغرائز ، وبكلمة واحدة ، الحالات النفسية لمختلف الطبقات  
والجماهير عن حالتها الاقتصادية ومصالحها الاقتصادية الجذرية .

---

(١) ج. ف. بليخانوف . المؤلفات الفلسفية المختارة في خمسة مجلدات ،  
المجلد ٢ . موسكو ١٩٥٦ ، صفحه ٢٤٧ .

(٢) ج. ف. بليخانوف . المؤلفات الفلسفية المختارة في خمسة مجلدات ،  
المجلد ٣ . موسكو ١٩٥٦ ، صفحه ١٨٠ .

وهذا اول وأعمق مصدر للظواهر الاجتماعية - السيكولوجية ، وبدون مطالب اقتصادية ، فان الدعاية في اوساط جماهير الشفيلة لا تجدى . « الجمهور يعتاد على الحركة ويشعر بنشاط فيها ويقدرها تقديرًا عاليًا ويتطور البطولة والتغافل والثابرة والاخلاص للقضية العظمى عند التحسن في الوضع الاقتصادي للعامل ليس الا » (١) . ان حذف المطالب الاقتصادية من البرنامج كان له ان يعني « اهمال المصالح الاقتصادية التي تحت على النضال العظيم والتغافل بشكل لم يعهد من قبل لجماهير الشعب المظلوم والخائف والجاهل » (٢) ان الثورة تنشب لا لأن عشرات او مئات من السياسيين البورجوازيين يتذمرون او يخطون بأسلوب ليبرالي ، ولكن لأن مئات الملايين من « الناس الصغار » يشعرون بعدم الرضا - هناك في وسط الجماهير الشعبية تنضج الثورة الديمقراطية بهدوء (٣) . وان الوضع الاقتصادي يؤدى سواء الى سلبية وخمول السياسيين المؤقتين ، أو الى نزوع مختلف الطبقات الكادحة الى الثورة الاشتراكية . وهكذا ، فان « الجمهور البورجوازي الصغير مهياً بوضعه الاقتصادي نفسه لسرعة التصديق وعدم الوعي العجيبين .. وهو ما يزال نصف نائم (٤) . وعلى العكس ، تقابل الاشتراكية - الديمقراطية لدى الجمهور البروليتاري « ميلا غريزيا » (٥) ظهر نتيجة لضرورة طبيعية .

لم يكن لينين ليتحاشى مطلقًا كلمات « الفريزة الطبقية » و « غريزة الطبقة الثورية » و « الفريزة الثورية » ، وكذلك

(١) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، صفحة ٢١٩ .

(٢) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٤ ، صفحة ٢٢٨ .

(٣) راجع ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، صفحة ٢٠٥ ، ٢١٦-٢١٥ .

(٤) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٤ ، صفحة ١٢٨ .

(٥) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١١ ، صفحة ٢٨٦ .

«اليدية الطبقية» و «الشعور» وما شابه ذلك (١) . انه يتكلّم عن العزيزة لا بالمعنى البيولوجي طبعاً ، وانما بالمعنى الاجتماعي - السيكولوجي . ويجد لينين ، في مختلف الاحوال ، كثيراً من التغيرات التبانية لابراز تلك الطبقة الاكثر تدانياً والاكثر ذاتية للحركات الاجتماعية ، او على العكس للرکود الاجتماعي . وهو بحلل ، كيف ان التشغيل يعني شعوراً غامضاً من الكراهية تجاه المضطهدين ، ويقوم بتعميم نظرى لهم : « هذه الكراهية من جانب ممثل الجماهير المضطهدة والمستثمرة ، هي حقاً » بداية لكل حكمة » واساس لكل حركة شيوعية ونجاحاتها » (٢) . ان الشاعر نصف العميان تحول الى نشاط نصف اعمى . و « أن جمهور الشارع غير المنظم يقيم أوائل المarris بشكل عفوی ومتعدد تماماً .. » (٣) . وال موقف السياسي المتذبذب للأحزاب البورجوازية « يثير اعصاب الجماهير .. يدفعها للانتفاضة » (٤) .

او على العكس ، فالمازاج الفريزى والشعور الاولى يعرقلان تطور هذا النشاط الاجتماعى او ذاك . في مقالة « حول أهمية الذهب » ، كتب لينين : « لن ننسى » لاشتراكية الشعور « او المازاج الروسى القديم النصف ارستقراطى والنصف موجيى والأبوى ذلك الذى يلزمه الاحتقار الفطرى للتجارة » (٥) .

وهكذا ، فان عدم التعليل والاتجاه الفريزى وعدم الانتباه للأمزجة والأعمال النبئية مباشرة عن الحاجات والمصالح المعاشرة

(١) راجع ، مثلاً ، ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٢ ، صفحه ٢٢  
المجلد ٣١ ، صفحه ٢٦٨ ، المجلد ٣١ ، صفحه ٦ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤١ ، صفحه ٦٥ .

(٣) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٣ ، صفحه ٣٧٠ .

(٤) راجع ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٤ ، صفحه ٢٣٠ .

(٥) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٤ ، صفحه ٢٢٧ .

على وجه التحديد ، تكون الصفة المميزة للسيكولوجيا الاجتماعية بالمعنى الخاص .

اما كيف تتعكس السيكولوجيا الاجتماعية في الايديولوجيا الاجتماعية ، فيمكن ان نحكم على ذلك بواسطة التحليل اللينيني لنظريات الديمقراطيين الثوريين الروس مثلا . يقول لينين ، بأنه لم يتعكس في الفكر الروسي التقديمي في القرن التاسع عشر مزاج « المثقفين » وانما انعكس ، على وجه التحديد ، مزاج الفلاحين الاقنان ضد نظام القن ، انعكس تاريخ احتجاج ونضال اوسع الجماهير الشعبية من السكان « ضد بقايا الرق في مجلب بناء الحياة الروسية » (١) .

ان مسألة ترابط السيكولوجيا والايديولوجيا غالبا ما تبرز في مؤلفات ف. ا. لينين على أنها مسألة المفوية والوعي . وهاتان المسألتان ليستا مسألة واحدة ، ولكنهما متراابطتان ترابطا وثيقا . فالوعي والمفوية كانا يتفاعلان كذلك في الحركة الثورية ، وكان الوعي يتتطور عن المفوية ويتبغل على المفوية . وبينوه ف. ا. لينين الى تباينهما ، ويشير في حديثه عن الفرق ما بين انتشار الوعي السياسي ونمو الاستياء لدى الجماهير ، الى انه على الاشتراكية – الديمقراطية ان تكون سببا للأول ، اما الثاني فيحدث بشكل عفوی (٢) .

اشار لينين اكثر من مرة الى هذا التأثير المتوازي والمتفاعل لعمل الفكر والتغيرات السيكولوجية الخفية على النضال الظبيقي للبروليتاريا وعلى مصائر الحركة الثورية . وهكذا ، اذ تحدث لينين في عام ١٩٠٥ عن المراحل الثلاث في تطور الحركة الاشتراكية – الديمقراطية العمالية ، قال ملاحظا : « ان كلما من هذه المراحل

(١) ف. ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٩ ، صفحه ١٦٦ .

(٢) راجع ف. ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٦ ، صفحه ١٩٨ .

قد أعد له ، من ناحية ، بعمل الفكر الاشتراكي في اتجاه واحد على الأغلب ، ومن ناحية أخرى ، بتغيرات عميقة في شروط الحياة وفي كل التكوين السيكولوجي للطبقة العاملة وفي تنبه قناع جديدة ، وجديدة منها للنضال الوعي والفعال » (١) . إن هذا الاهتمام بعمل الفكر وبالتالي التكوين السيكولوجي ، بالأفكار وبالازمة في وقت واحد ، هو ما يتصف به التعليم الليبي الشامل لمجال الوعي الاجتماعي للطبقات والجماهير .

في عملية النشاط الثوري المباشر يشدد لينين ، خصوصا ، على النضال والارتباط المتبادل ما بين المتضادات في مجال الوعي الاجتماعي ، فالسيكولوجيا الاجتماعية والإيديولوجيا يقعن في بعض التناقض فيما بينهما ، ولكن لا يوجد أحدهما بمعزل عن الآخر . وفي الحقيقة ، يبرز هنا كفهومين متعارضين ، عدم الوعي الأعمى لسلوك الناس ، من ناحية ، والوعي العلمي ، من ناحية أخرى . وفي الواقع فان لينين يستعمل أحيانا اصطلاح « عدم الوعي » . وهكذا ، فقد كتب في مؤلف « من هم » « أصدقاء الشعب » . . . : لم يحدث في السباق أبدا ، أن أعضاء المجتمع كانوا يرون أنفسهم عبارة عن « مجموعة لتلك العلاقات الاجتماعية التي يعيشون ضمنها ، كشيء محدد وكامل . . على العكس ، فالجمهور يتکيف بدون وعي مع هذه العلاقات ، بحيث أن تفسير علاقات التبادل مثلا ، أو التي عاش الناس ضمنها عشرات السنين قد تبدى في السنوات الأخيرة فقط » (٢) . ولكن ما بين تکيف الناس غير الوعي والبعيد عن التفكير المنطقي والإدراك مع الحياة الاجتماعية المضطربة الأمواج والفامضة كلجة البحر ، وما بين تفسيرها النظري العلمي يمتد مجال واسع ، حيث يشكل هذان

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٩ ، صفحة ٢٩٤ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١ ، صفحة ١٣٦ .

المبدأ المترافقان ، في مختلف تمازجهما الواحد بالآخر ،  
السيكولوجيا الاجتماعية والإيديولوجيا .

ان السيكولوجيا الاجتماعية ، هي اجذب لقطب « التكيف غير  
الوعي » ، ولكن يوجد فيها هذا او ذاك من تأثير الوعي  
ومساهمته . وطبقاً لهذا ، فالتضاد ما بين السيكولوجيا  
الاجتماعية والإيديولوجيا ليس مطلقاً ، وإنما نسبي جداً فحسب ،  
مع كثير من الدرجات الانتقالية ، للدرجة انه يمكن ان تصادف عند  
لينين تقارب هذين المفهومين لدرجة عدم تجزئتها تقريباً . مثلاً :  
« هذه السيكولوجيا والإيديولوجيا ، مهما كانت مهمتها ، فهي عند  
كل عامل وفلاح قد ترسخت بعمق فائق » (١) .

وصف لينين بمفهوم « المقوية » خصال السيكولوجيا  
الاجتماعية ، تلك التي تنجدب كثيراً او قليلاً الى جانب عدم  
الوعي ، ولو أنها لا تتطابق معه . وتدخل هنا ضمن « المقوية »  
مجموعتان من الفظواهر على الأغلب : ١ - خضوع الناس وانعاتهم  
للحرب والتعسف والتعدد على وضعية الظلم ، ٢ - الاحتجاج  
والنذير والتمرد ، ولكن بشكل موجه ضد المصدر المباشر للفواجع  
فقط ، وهي تحمل طابعاً سلبياً ولا تهتم بنظرية اجتماعية ..

ان موقف لينين من المجموعة الاولى ، هو موقف سلبي بشكل  
خاص ، وهو يدعوه جميع قوى الثوريين - الماركسيين لغير هذا  
الحاجز البالغ الكبر في سيكولوجيا كل الجماهير والفئات  
الكافحة . ان الخضوع الذليل يبرر كثيء ينافض كل أفق ثوري  
وكل نشاط ثوري .

في عام ١٩٠١ كتب لينين : « كما ان الفلاح قد اعتاد على  
الحرمان الذي لا مخرج منه ، واعتاد ان يعيش دون أن يفكر في

---

(١) ف. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ ، صفحة ٢٦٧

أسباب ذلك الحرمان وفي امكانية ازالته ، كذلك فان الروسي ضيق التفكير قد اعتاد على سلطة الحكومة على ان يعيش ، دون ان يفكر في استمرار هذه السلطة . وفي امكانية وجود تلك الظواهر التي تتحرك من اجل تقويض ذلك النظام السياسي الهرم « (١) . ان لينين يقصد طبعا بهذه الظواهر المقوضة ، تطور الطبقة العاملة في الدرجة الاولى . ولكن حتى في الطبقة العاملة : لاحظ لينين آثار سيكولوجيا الخضوع والاذعان هذه .

اثارت الفئة الثانية لظواهر العفوية اهتماما كبيرا من جانب لينين كرجل ثوري نظري وعملي . لقد كان غريبا عليه بالمرة ذلك الوقف المتزمن من العفوية . وعلى العكس ، فقد كتب ، « بأن عفوية الحركة ، هي علامة لعمقها في الجماهير ولشدة جذورها وثباتها ، هذا لا شك فيه » (٢) ، « .. ان « العنصر العفو » ، ما هو في الواقع الا شكل اولى للوعي . والتمردات الفطرية كانت تعبّر عن بعض تنبه في الوعي : كان العمال يفقدون الایمان القديم بالأنظمة التي تضفط عليهم ، وابتدأوا .. لا أقول يفهمون ، وإنما يشعرون بضرورة المواجهة الجماعية ، وتوقفوا بحزم عن الخضوع الذليل تجاه الرؤساء . ولكن هذا لم يكن نضالا ، وإنما كان ، على الأرجح ، مظهرا للراس والانتقام » (٣) .

والرئيسي ، ان قيمة شكل العفوية هذا ، بالنسبة للماركسي - الثوري ، تتحصر لا في أن هذا الشكل كفاء لأن يتولد عنه الوعي النظري ، ولكن في انه يوفر تربة خصبة للدعابة والاستيعاب . لقد كان المزاج السياسي والحركة العفوية للطبقة العاملة ، برأى لينين ، المصدر الرئيسي الذي يغذي الاشتراكية - الديمقراطية

(١) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٥ ، صفحة ٤٥ .

(٢) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، صفحة ٢١٧ .

(٣) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٦ ، صفحة ٣٠-٢٩ .

الثورية ، وقد ساعدا على الانتشار السريع لافكار الماركسية في روسيا<sup>(١)</sup> . أن المهمات الواقعية والعمليات في متناول الثوريين – الايديولوجيين ، « تماماً لأنه يقدر ما تقابل دعايتهم المتوقدة تجاوباً في الجمهور المتتبه بشكل عفوی ، يقدر ما تلقى طاقتهم المتقدة تأييد ودعم طاقة الطبقة الثورية »<sup>(٢)</sup> . على هذا النحو كان جواب لينين على سؤال الثوريين المثقفين « ما العمل ؟ » . ان الشبيبة المسلحة بالنظرية الماركسية الثورية تستطيع ان تكتسب قوة اذ تحمل هذه النظرية الى الجماهير المتتبه بشكل عفوی . وقد كتب لينين ، بان الديمقراطي الثوري ، قبل ان يوجه الى « المسؤولين » تقريرا حول اى سوء او اى نقص ، فانه يكشفهما ويظهرهما امام الشعب ، « مستعينا بطاقته »<sup>(٣)</sup> . ان الماركسية توفر للثوري الامكانية ليشرح للعمال الاسباب الحقيقة لبؤسهم ، وبفضل هذا « تفتح له اكثر الآفاق اتساعا وتضع ( اذا صح التعبير ) تحت تصرفه قوى هائلة لللابين وملايين من الطبقة العاملة من قاموا « بشكل عفوی » للنضال !<sup>(٤)</sup> .

سبات وتتبه – تلكم هي الحركة من طرف واحد . والنظرية العلمية تحولها الى ايديولوجيا ودعاية اجتماعيين – سياستين موضوعتين بشكل واسع – تلكم هي الحركة الفالية . وقد نوه ف . ا . لينين بانه ما كان ليكفى جعل العمال الروس يعون ، بصورة عامة المبادئ الرئيسية لللاقتصاد السياسي التي توضح طبيعة الاستثمار الرأسمالي ولا يكفى ان نحمل للعمال المبادئ العامة للشيوعية العلمية . ان هذا لا يشكل كل ما هو ضروري بعد ، لكن تكون النظرية العلمية ذات صلة وتفاعل مع شعور

(١) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٥ ، صفحة ١٤-١٥ .

(٢) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٦ ، صفحة ١٠٦-١٠٧ .

(٣) ف.ا. المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ ، صفحة ٢٨٨ .

(٤) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٦ ، صفحة ٤٨ .

الاحتجاج والتذمر عندهم ، ان العمال الروس يعيشون في بلد فلاحى ، وهم انفسهم ، بأكثريتهم الساحقة : فلاحو الامس او لهم ارتباطات مع الفلاحين ، وحولهم تسود مؤسسات من مخلفات القنانة وجهاز للسلطة مستبد - بير وقراطى . وهكذا ، فالنظرية العلمية يجب ان يصل الى مسامعهم متشعبة ومعدة ، بحيث أنها ستوضح لهم لا مصالحهم الطبقية الضيقة فحسب ، ولكن كل المجتمع المحيط بهم ، وستبين لهم بأنه بدون سحق اعمدة الرجمية هذه ، لا يمكن للطبقة العاملة ان تخوض النضال ضد البورجوازية ، فالنصر لن يكتب لها بدون دعم من المعدمين في القرية ، ولأنه بدون هذا الفهم الواسع للنظام الاجتماعي وبدون تلك الجبهة الواسعة للشغيلة ، فإنه لن يتيسر للطبقة العاملة « أبداً أن تخلص من وضعية الناس المظلومين » القادرین على اليأس البليد فقط ، لا على الاحتجاج العاقل والحازم وعلى النضال » (١) .

نعم ، ان العمال يلزمهم مفهوم علمي ، على الا يكون هذا المفهوم مقتضاً على ما له صلة بالصناعة او العمل الصناعي . ولاجله ، ينزع الماركسيون الروس عن القرية تلك الزهور الوهمية ، كالتى يزينها الشعبون بها ، وذلك لكي تتعى البروليتاريا القيد التى تقبل الكادحين فى كل مكان وتستطيع ان تقوم ضدها وترمى بها « وتمتد البى للزهرة الحقيقية » - الاشتراكية » (٢) .

كتب لينين في مؤلفه « ما العمل ؟ » بأنه « على العامل لكي يصبح اشتراكيا - ديمقراطيا ان يتصور الطبيعة الاقتصادية والمظهر الاجتماعي - السياسي للملك والقس ، للوجيه والفللاح ، للطالب والمتشرد وان يعرف جوانب القوة والضعف فيهم وان يجد الامان في تلك العبارات الشائعة وفي السفطات المتنوعة التي

(١) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١ ، صفحة ٣٠١ .

(٢) المصدر السابق ، صفحة ٢٤٢ .

تستر بها كل طبقة وكل فئة ادعاءاتها الانانية و « باطنها »  
الحقيقي . . . (١) .

وبكلمة ، فان الحركة المقابلة يجب ان تكون اعدادا ودعابة لتلك  
النظرية التي تقترب ، في الواقع ، لصق الرغبة المتباهة عفويا للعمل  
والنضال ونشير الى وجهة هذه الفعالية وتشمل ، عبر الوعي  
مجال الشعور كذلك . ويستند لينين الى عبارة بليفة من حديث  
لانجلس : بدون مدلول نظري ، ما كان للاشتراكية العلمية ابدا ان  
تنقلل الى تلك الدرجة في لحم العمال الالمان ودمهم (٢) ذلك ،  
في الواقع ، المدى الاكثر عمقا لتلك الحركة المقابلة ، فالنظرية ،  
اذ تتجاذب مع سخط الجماهير المتباهة عفويا ، قادرة ليس فقط  
على ان تحوز على وعيهم ، وانما ان تدخل في لحمهم ودمهم . وهذا  
ما تعبّر عنه هذه الكلمات المشهورة : تصبح النظرية قوة مادية  
حينما تحوز على الجماهير .

في عام ١٩١٢ ، كتب لينين : نقول : ان العمال وال فلاحيين ،  
المظلومين من قبل الوضع الارهابي اكثرا من غيرهم ، قد ابتدأوا  
بالانتفاض - ومن هنا استنتاج واضح و مباشر ، يجب ان يوضع  
لهم ، باسم اي شيء وكيف ينبغي التحضير لانتفاضة ناجحة » (٣) .  
على هذه الصورة ، علم لينين الثوريين الروس ربط الاشتراكية  
العلمية بالحركة العمالية الجماهيرية .

ان ميدان النشاط لا يحصر بالجماهير العمالية فحسب .  
« جموع الناس » لأن الطبقة العاملة وفئات مختلفة من المجتمع ،  
تزيد دوما ، تعزز ، في كل عام ، بشكل متزايد ، غير الراغبين  
والراغبين بالاحتجاج والمستعددين لأن يقدموا المساعدة الممكنة

(١) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٦ ، صفحة ٧٠ .

(٢) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ ، صفحة ١٧١ .

(٣) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ ، صفحة ١٧١ .

للنضال ضد الحكم المطلق الذي لم تتضح وطاته تماماً بعد ، ولكن جمهوراً يتزايد دوماً يتحسّها ، وبوحدة متناهية » (١) . ويسجل لينين ، هنا ، من جديد ، ذلك المدلول الواسع المدى الى اقصى حد الذي يبتدئ بالتحسن غير الوااعي ، وينتهي بالوعي العلمي . ومن تحليله لسيكولوجيا التلمع المفوي يستنتج ، بأنه يجب توجيه الدعاية والتحريض لا الى البروليتاريا فحسب ، ولكن الى الطبقات الأخرى للمجتمع . ويكتب : « هل توجد تربة للعمل ضمن جميع طبقات السكان ؟ ان من لا يرى هذا سيختلف بوعيه عن النهوض المفوي للجماهير . لقد اثارت الحركة العمالية – وما تزال تثير – السخط عند البعض ، والأمال في دعم الموقف عند البعض الآخر ، والشعور باستحالة الحكم المطلق وباحتمالية انهياره عند الآخرين .. وذلك دون أن نذكر بأن كل الجمهور المتعدد الملابين من الفلاحين الكادحين والعمال اليدويين والحرفيين الصغار وغيرهم ، قد أصبح متعطشاً دوماً للاستماع الى دعاية أى اشتراكي – ديمقراطي حاذق . ولكن هل من الممكن أن نشير ولو الى طبقة واحدة من السكان لا يوجد فيها اناس وجماعات وحلقات ساخطون على التّلّم والتّعسف ، ولهذا فهم ملائمون للدعاية الاشتراكي الديمقرطي » (٢)

وكلّاً هرّة فريدة للفكرة اللينينية حول المفوية والوعي . سننوه بوضعه لمسألة التّأثّر في الجبهة في عام ١٩١٧ . فقد كتب لينين ، بان التّأثّر قد ابتدأ ، وهو يسير بشكل عفوی ، « وليس لدى الجنود المتّأثّرين فكرة سياسية واضحة ، هنا تتكلّم غريبة الناس المضطهدّين الذين تعبوا وانهكوا ، وهم يكفون عن تصديق الرأسماليين .. تلّكم هي غريبة طبقيّة صادقة . وبدون غريبة كهذه لكان قضيّة الثورة ميسّرة منها .. ان انتقال هذه الغريبة

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة المجلد ٦ ، صفحة ١٢٨ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٦ ، صفحة ٣٨ .

الى مرحلة الوعي شيء ضروري » (١) . وطالما ان التأريخ لا يزال عفويًا ، فهو يعني فقط تصدع نظام النكتات اللعين ، نظام خضوع الجنود الميت للضباط والجنرالات والرأسماليين . ولكن هذا بادرة ثورية للجماهير . (٢) لقد كان التأريخ عفويًا ، ولكنه انتقل من التأريخ على جهة واحدة الى التأريخ على كل الجهات ، ومع توسعه توفرت التربية لأجل ادخال الوعي السياسي فيه ، لأجل الانتقال الى التأريخ الواعي (٣) .

ولكن كل هذا الاهتمام اللبناني الشديد والواسع بالقفوفية في شكلها الثاني ، أى سيكولوجيا الاحتجاج لا سيكولوجيا الاذعان يؤدي فقط الى نتيجة ، وهو ان الاولى مستعدة بتعطش كالاسفنجة لأن تمتص هذا الوعي او ذاك — سواء اكان هذا ، الايديولوجيا البورجوازية ، ام العلم الحقيقي للاشتراكية البروليتارية — ان سيكولوجيا الاحتجاج هذه ، او هذه المفهوية لا تحتم بنفسها ابدا اختيار الوعي العلمي وترك الايديولوجيا غير العلمية . وعلى العكس ، فان التطور العفوي للحركة العمالية يؤدي — على وجه التحديد — الى خضوعها للايديولوجيا البورجوازية ، كما يؤكد لينين . ولو ان النظرية الاشتراكية اوضحت وأقرب بالنسبة للعمال ، الا ان الايديولوجيا البورجوازية اقدم من الاشتراكية ، ومعدة بشكل اشمل ومتلك وسائل انتشار ضخمة بشكل لا يقاس . وهذا هو السبب في ان « كل اعجاب بعفوفية الحركة العمالية وكل استصغار للدور « العنصر الواعي » ولدور الاشتراكية — الديمقراطية يعني

(١) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، صحة ٣٩٩ .

(٢) راجع المصدر السابق ، صفة ٤٥١ .

(٣) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، صفة ٣٢٧ ، المجلد ٢٢ ، صفة ٢٧٢ .

— بغض النظر تماماً عما إذا كان المستنصر يرغب في هذا أو لا —  
تفوقة تأثير الإيديولوجيا البورجوازية على العمال » (١) .

ذلك هو دينكتيك التفكير اللبناني حول السيكولوجيا الاجتماعية للتذمر والاحتجاج العفوين : إن لينين ، إذ يرى في هذه العفوية تربة للوعي الاشتراكي ، فإنه في الوقت نفسه يهاجمها ويرفض الخضوع لها لأنها بذاتها عبارة عن تربة للإيديولوجيا البورجوازية فقط . ويمكن للعفوية أن تكون السنن الأكبر ، وأن تكون العقبة الكاداء في طريق الثورة . « غالباً ما يقولون : إن الطبقة العاملة تنجذب عفويًا نحو الاشتراكية . وهذا صحيح تماماً بهذا المعنى ، وهو أن النظرية الاشتراكية تحدد بشكل أعمق وبشكل أصح أسباب مصانب الطبقة العاملة ، ولهذا فالعمال يستوعبونها بسهولة هكذا ، وذلك إذا كانت هذه النظرية نفسها لا تستسلم للعفوية وإذا كانت تخضع العفوية لها ... إن الطبقة العاملة تنجذب عفويًا نحو الاشتراكية ، ولكن الإيديولوجيا البورجوازية الأكثر انتشاراً تلح على العامل بشكل متزايد » (٢) .

آراء لينين هذه تقودنا إلى فهم التضاد والتأثير المتبادل ما بين السيكولوجيا الاجتماعية والإيديولوجيا ، ما بين العفوية والوعي ، ما بين عدم الوعي والعلم . إن معرفة كل هذا الميدان للظواهر الاجتماعية السيكولوجية غير الواقعية والعفوية ، ولكن الخاضعة لهذه الإيديولوجيا أو تلك كانت — كما ترى — ضرورية للينين ، وذلك منذ عام ١٩٠١ للإجابة على هذا السؤال « ما العمل ؟ ». وبقيت هكذا طوال مسيرة نشاطه الم قبل .

---

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٦ ، صفة ٣٨ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٦ ، صفة ٤١ .

## الناحية السيكولوجية للعلاقة المتبادلة ما بين الطليعة والجماهير

اننا اذ ندرس مجموع ملاحظات لينين بشأن السيكولوجيا الاجتماعية ، فاننا نرى بأن جميع هذه الملاحظات خاصة في نهاية المطاف لمهمة واحدة – المراقبة الصحيحة لظروف النشاط الثوري للحزب والتقييم الصحيح للتربيـة الاجتماعية – السيكولوجية التي تتجه شعارات الحزب نحوها وفعاليـة نشـاطه . وبنظرـة ثانية يلاحظ لينين بامان ، وسط مختلف فئـات البروليتاريا والـفلاحـين . وبناء على الموقف السياسي العام ، تدفق الطاقة الثورية احياناً ; وأحياناً هبوطاً لها الموقـت ، وفي بعض الاحيان ، كما يكتب ، الكـابة والـخـمول (١) . ويمتد امام ناظريـه ، مجال رحـب ، فبعد التـهـوض الثوري في اعوام ١٩٠٥ - ١٩٠٧ ، تـاتـي « فـترة الهـبوـط الكـبـير في طـاقـة الجـماـهـير » (٢) ، وفي ظـروف تـاريـخـية أخـرى ، في ظـروف الصـعـوبـات العـسـكـرـية عام ١٩١٨ ، يـاتـي التـنبـؤ بالـنصر ، « اذا تكون في المـازـاج الشـعـبـي ذـكـ الانـعـطـاف الذـي يـنـضـجـ والـذـى ربـما كان يـلـزمـه وقت طـوـيل ، ولكن سـيـاتـى حينـما تـقولـ الجـمـاهـير الوـاسـعة

---

(١) راجـع فـ. لـينـين . المؤـلفـاتـ الكاملـة ، المـجلـدـ ١٩ ، صـفحـة ٤٠٩ .

(٢) المصـدرـ السـابـق ، صـفحـة ٢٧٢ .

غير ما تقوله الان » (١) . وبناء عليه فان الحزب كان يغير طرائق عمله المتنوعة بين الجماهير .

ان هذا يشكل جانبا من الجوانب في تعاليم لينين حول العلاقة المتبادلة ما بين الحزب وما بين الجماهير والطبقات . وهنالى نظر، فقط الى تلك الناحية السيكولوجية ، على الرغم من انها مرتبطه ارتباطا وثيقا بنواح اخرى .

ان علاقات الطليعة المنظمة بالجمهور الآخر ، هي مثل لدبيالبيكيل البنينية .

قبل كل شيء ينوه لينين ، وبلا كلل ، الى ان الطليعة الاحسن والاكثر ثورية والحزب العمالي الاقوى ، عبارة عن جزء يسير من البحر الشعبي الهائل . وهو بلا قوة اذا كان هذا البحر لا يضطرب « ان احسن الطلائع تعبّر عن وعي وارادة وشوق وخيال عشرات الالوف ، اما الثورة ، فينجزها ، في لحظة نهوض وتوتر خاصين لكل المواهب البشرية ، وعي وارادة وشوق وخيال عشرات الملايين ، وقد حثّهم نضال الطبقات الاكثر حدة » (٢) .

لم يتهدّب لينين ، في لحظات التهوض الثوري المفاجيء ، من الاشارة الى تخلف الحزب عن التطورات المفوية للسيكلولوجيا الثورية عند الجماهير . « لقد كشف الناسع من يناير عام ١٩٠٥ كل الاحتياط الهائل للطاقة الثورية لدى البروليتاريا وكل نقص التنظيم لدى الاشتراكيين - الديمقراطيين » (٣) . ونتيجة للاتساع الجامح لحجم جماهير البروليتاريين والفلاحين المتنبهين

---

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، صفحة ٢٥ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤١ ، صفحة ٨٠-٨١ .

(٣) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٩ ، صفحة ٢٦٤-٢٦٥ .

للحياة السياسية والثورية بعد احداث يناير عام ١٩٥٥ ، خرج  
لينين على الفور باستنتاج علمي : « فلتتكلم ببساطة : يجب ان  
نوسع بحزم تركيب المنظمات المتنوعة الحزبية والقريبة من  
الحزب لكي تتماس للدرجة ما مع تيار الطاقة الثورية الشعبية  
المتزايد مائة مرة » (١) . وقد اشار لينين في احدى رسائله في  
ذلك الوقت ، بأنه اثناء حركة هائلة كهذه « لن يتسع ولا للجنة  
مركزية في العالم لاي حزب سرى كان ، أن تلبى جزءاً من الف  
من المطالب » ، وبأنه ، وان كان شخصياً الى جانب تأجيل  
الانتفاضة الى الربيع ، « الا انهم على كل حال لا يسألوننا » (٢) .  
لابد من مؤتمر لأجل الاعداد للانتفاضة ، على أساس تجربة ذوى  
الخبرة ومزاج الجماهير الشعبية » (٣) . ويشير لينين دائماً  
وابداً الى أن الحزب لا يدرك تطور فعالية الجماهير . « لقد بینت  
الحياة ، بأن الحديث لا يدور حول انتفاضة « جماهير متوجهة » ،  
ولكن حول انتفاضة الجمهور الواقع قادر على النضال المنظم ..  
يجب ان نوضح ما هو مزاج البروليتاريا ، وهل يرى العمال  
انفسهم اهلاً للنضال ولقيادة النضال » (٤) . ويمر بعض الوقت  
ايضاً ، وتتأتي احداث موسكو ، كما قال لينين ، لتبيّن من جديد  
« انا جميعاً مازلنا ميسالين للاستخفاف بالفعالية الثورية  
للجماهير » (٥) . ويبدي لينين تقريراً عالياً كهذا لمبادرة الطبقة  
العاملة في مراحل التاريخ التالية كذلك . فمثلاً ، في عام ١٩١٩ ،  
اذ يقول بأن السلطة السوفيتية تصمد في القرية بفضل الدعم  
المخلص من قبل أكثريّة الشغيلة ، يتتابع : « لقد حصلنا على هذا

(١) المصدر السابق ، صفحه ٢٠٢ .

(٢) راجع ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٧ ، صفحه ١٠٠ .

(٣) ف.ا. لينين . المؤلفات المجلد ١٠ ، صفحه ١١٥ .

(٤) المصدر السابق ، صفحه ١١٤ .

(٥) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١١ ، صفحه ٢٨٥ .

لتدعم لأن عمال المدن توصلوا إلى الارتباط مع فقراء القرية بآلاف  
الطرق التي لم تخطر لنا على بال « (١) » .

ولكن هذا قطب واحد فقط من الدياليكتيك ، انطلاقاً من أن  
لينين كان يوجه عمل الحزب ليس فقط خلال فترة الانفجار ،  
وانما خلال فترة الهدوء كذلك ، حينما يطلب من الحزب أن يقوم  
بالدعاية السياسية لتنبيه الجماهير الواسعة (٢) . والرئيسى ،  
هو أن الطليعة ، – ولهذا فهي طليعة – قادرة على أن تجذب  
وتکهرب الجمهور . « لقد حدث أكثر من مرة في الظروف  
المضيبة لحياة الشعوب ، إن فصائل طليعة لطبقات طليعة ،  
على قلة عددها ، قد جذبت نحوها الجميع وأضفرت النصارى في  
الحماس الثورى لدى الجماهير ، وقامت بأعظم المأثر  
الثورية » (٣) . دور الطليعة هذا لم يتحقق في التاريخ  
بواسطة الدعاية لنظرية طليعة فحسب ، وإنما ، وعلى وجه  
التحديد بواسطة نشر حماسها ، وبالضبط بواسطة إيقاد لهيب  
المزاج الثورى . كتب لينين : « إن جميع الانقلابات السياسية  
العظيمة ، كان يتم حلها بواسطة حماس الفصائل الثورية التي  
كان الجمهور يسير وراءها بشكل عفوی ونصف واع » (٤) .

حينما دعا الحزب في عام ١٩٠٥ للتركيز على وسائل  
النضال غير البرلمانية ، كان هذا ، كما يكتب لينين ، نداء لأناس  
« يقفون عملياً في مقدمة الجمهور ، في مقدمة ملايين المناضلين  
من العمال والفلاحين . إن الملايين ، وقد ساندوا هذا النداء ،

(١) راجع ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٨ ، صفحة ٦١ .

(٢) راجع ف.أ. لينين . ما المثل ؟ . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٦ ،  
صفحة ١٧٦-١٧٧ .

(٣) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، صفحة ٣٦١ .

(٤) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٤ ، صفحة ٢٢٦ .

يبينوا بأن الشعار كان صحيحاً من الناحية الموضوعية ، ولم يعبر عن « اعتقادات » حفنة من الثوريين فقط ، وإنما عن واقع حال الجماهير ومزاجها ومبادرتها » (١) . وقد كتب لينين في عام ١٩١٦ ، بأن الجمهور يشعر بصحّة رأينا بشكل غريزي (٢) . وبتعبير آخر ، فإن شعارات الحزب تقع على تربة اجتماعية – سيكولوجية مشابهة وتجاوب معصالح الموضوعية للجماهير . وفي هذا تكمن قوّة الحزب البلشفي . وفي عام ١٩١٧ ، نوه لينين قائلاً : نحن على وجه التحديد ، ونحن فقط « نشعر » بتبدل مزاج الجماهير وبشيء آخر أكثر أهمية وأعمق بكثير من المزاج وتبدلاته ، بالصالح الرئيسية للجماهير » . واستطرد قائلاً : بأن البلاشفة يعرضون عن الشوفينية لكي يعبروا عن صالح الجماهير ويدعواها للثورة و « يستخدموا تبدل مزاجها لا لأجل التكيف غير المبدئي وراء هذه المزاج ، وإنما لأجل النضال المبدئي في سبيل القطيعة التامة مع الاشتراكية – الشوفينية » (٣) .

وكما نرى ، فإن لينين ، هو عدو السير الأعمى للحزب وراء سيكولوجيا الجماهير . وهو يصرّح بهذا مباشرة . « طبعاً ، نحن لا نخضع لجميع إشارات الجمهور ، لأن الجمهور ينبع من أحياناً – ولا سيما في سن الاعباء والتعب الشديدين ، نتيجة للأعباء والآلام الفائقة – ينبع لامزجة ليست طبيعية بالمرة » (٤) .

ذلك هو – في مجال السيكولوجيا – ديناليكتيك التفاعل ما بين الجمهور والطبيعة أو ، كما قال لينين في مؤلف « ما العمل؟ » « ما بين الجمهور والثوريين المحترفين » (٥) .

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٧ ، صفحة ٣٤٨ .

(٢) راجع ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، صفحة ٧٢ .

(٣) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، صفحة ١٠٥ .

(٤) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٤ ، صفحة ١٢٢-١٢٣ .

(٥) راجع ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٦ ، صفحة ١٢٥ .

يجب على الحزب أن يكون مع الجماهير دائمًا وأن «يسير حتماً حيث تسير الجماهير»، ويحاول في كل خطوة دفع وعيها وقيمها في اتجاه الاشتراكية<sup>(١)</sup> . إن الحزب يحرز الدور القيادي ببقائه دوماً إلى جانب الجماهير وبكونه يلهمها ويوجهها بطاقته . ولكن الجمهور الكاذح ، قبل كل شيء ، هو الذي يبدع التاريخ . وقد كتب لينين في عام ١٩٠٥ ، بأن الطبقة العاملة تندفع بشكل غريزي نحو الانتفاضة الثورية المكتوفة ، ولكن نحن ، الحزب ، يجب أن نضع بشكل صحيح مهام هذه الانتفاضة ، أي أن نقود البروليتاريا ، لا أن نجر في ذيل الأحداث فحسب<sup>(٢)</sup> . وحول هذا ، كتب لينين في بداية عام ١٩١٧ : إن القوة الواقعية الوحيدة المرغمة على التغيير ، هي فقط الطاقة الثورية للجماهير ، وهي بالضبط تؤدي إلى الدعاية بين الجماهير وتحريضها وتنظيمها من جانب الأحزاب السائرة على رأس الثورة ، لا في ذيلها<sup>(٣)</sup> . «الاشتراكية لا تقام بأوامر من الأعلى . إن روحها بعيدة عن الاتوماتيكية الحكومية – البير وقراطية . فالاشتراكية الحية والخلقة ، هي من صنع الجماهير الشعبية نفسها»<sup>(٤)</sup> .

ولنتذكر كيف طرح لينين في يوليو ١٩١٧ مسألة واجب الحزب فيما يخص مزاج الجماهير . يوجد « بشكل متزايد مزاج من السخط وعدم الصبر والاستياء لدى الجماهير .. إن الواجب المطلق للحزب البروليتاري كان البقاء مع الجماهير ، محاولاً إسباغ الطابع الأكثر هدوءاً وتنظيمها على انتفاضاتهم العادلة»<sup>(٥)</sup> .

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٧ ، صفحة ٣٦٣ .

(٢) راجع ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١١ ، صفحة ٦٤ .

(٣) ف.أ. لينين المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢ ، صفحة ٢٨٢ .

(٤) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٥ ، صفحة ٥٧ .

(٥) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، صفحة ٤٢-٤٤ .

ولنتذكر كيف أصاغ لينين سمعه بجرأة لامال الفلاحين حول التقسيم المتساوی للارض ، بعد ان سلمت ثورة اكتوبر الواقع الاقتصادية والسياسية المسيطرة الى يد البروليتاريا : « ان الحياة هي احسن معلم ، وهى ستظهر من هو على حق ، ولندع الفلاحين من طرف ، ونحن من طرف آخر ، ولتحل هذه القضية . ان الحياة تلزمنا على التقارب فى التيار العام للابداع الثورى وفي وضع صيغ جديدة للدولة . يجب علينا أن نتبع الحياة ، يجب أن نقدم حرية الابداع الكاملة للجماهير الشعبية » (١) .

ولنتذكر أخيرا ، كيف برهن لينين على ضرورة فترة راحة سياسية في عام ١٩١٨ : لقد اقنع البلاشفة الشعب ، وانتزعوا من الأغنياء نفوذهم عليه ، ولكن التدهور والجوع وارث الحرب - « كل هذا ولد بشكل لا مفر منه التعب وحتى الانهالك لقوى الجمهور الواسع من الشفيلة . وهو يطالب بالحاج - ولا يمكن له الا ان يطالب - براحة معلومة » (٢) .

وهكذا ، فقد قدر لينين الحزب ، لا كثيء بذاته ، وإنما لوقفه بخصوص المبدع والقوة الحاسمة للتاريخ - جمهور الشعب الكادح . وهذا هو المقياس الوحيد الذى يقيس به التطبيق السياسي والتاريخ . « ان كل زيف فى موقف حزب ما يؤدى بذلك الحزب فورا الى المكان الذى يستحق » (٣) . وانطلاقا من هذا الفهم للعلاقات المتبادلة ما بين الحزب والجماهير ، فان لينين اغار اهتماما غير قليل لا لسيكولوجيا الجماهير فحسب ، وإنما لسيكولوجيا اعضاء الحزب كذلك . وكان - فى بعض الاحيان - ينتقد هذه الأخيرة بشدة .

(١) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٥ ، صفحة ٢٧ .

(٢) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، صفحة ١٧٣ .

(٣) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٧ ، صفحة ١٢ .

وقد كتب في عام ١٩٢٢ : « ان القوة الاقتصادية في يدي الدولة البروليتارية تكفي تماماً لكي تضمن الانتقال الى الشيوعية فما الذي يعوزنا ؟ ما يعوزنا امر واضح . تعوزنا الثقافة لتلك الفئة من الشيوعيين التي تقوم بالتجويد » (١) .

وقد عثر لينين ، في الوقت نفسه ، على كلمات قوية مؤثرة بقصد النفوذ الفكري والسيكولوجي للحزب وممثليه لدى الجماهير . وكتب في عام ١٩٠٧ ، بعد الانشقاق عن الماشفة : « كان يجب ان نشير في الجمهور الكراهية والتقدّر والاحتقار تجاه هؤلاء الناس الذين لم يعودوا اعضاء في حزب مشترك » (٢) . ان هذه الكلمات تشرح جيداً ، وبشكل غير مباشر ، كل الاهمية التي كان يعلقها لينين على المشاعر العكيبة للجماهير نحو البلاشفة . وقد كانت دعاية وتحريف هؤلاء الآخرين دوماً « التجاء الى مشاعر الجماهير » ، كما افصح لينين بصدق بيان الاممية الشيوعية الثالثة (٣) . ولقد كانت كل نداءات وشعارات الحزب قوية بسبب هذا وبسبب فعاليته وأساسه العلمي . تحويل السوفيات الى هيئات للاقنافاة ، الى هيئة للسلطة الثورية ! « بدون هذه المهمة ، فإن السوفيات العوبية ذارقة ، تؤدي بشكل لا مفر منه الى خمول واستهانة وخيبة الجماهير التي سُئلت ، وبصورة مشروعة تماماً ، من التكرار الذي لانهاية له للقرارات والاحتجاجات » (٤) .

ان الحزب قوى بوضوح دعايته وقوّة مثاله . وقد كتب لينين : « منا ، ينتظرون الدعاية على شكل مثال : يجب اظهار

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٥ ، صفحة ٩٥ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٥ ، صفحة ٢٩٨ .

(٣) راجع ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٨ ، صفحة ١٨٠ .

(٤) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، صفحة ٢٤٣ .

«المثل للجمهور غير الحزبي» (١) . وفي تلك المفاضلات ، حيث  
ساد الجوع في عام ١٩١٨ ، طالب لينين بتوسيع الدعاية  
الجماهيرية نسبياً العمال وضمن الفلاحين الجائعين على حد  
 سواء ، وبشكل خاص ، الانطلاق في حملة للحصاد في قضاء  
يلتسكى الخصيب (٢) .

ومثال آخر يتضمن معنى كبيراً ، كان لينين يطلقه ، دائماً  
وفي كل مكان عن السيكلولوجيا وعن المهمات الاجتماعية –  
السيكلولوجية للعمل الحزبي . فها هو يحدث جموع الحاضرين  
في اجتماع في عام ١٩١٩ عن انتصارات الجيش الأحمر على  
الدون . وقد أصبحت هذه الانتصارات ، برأيه ، شيئاً ممكناً  
بشكل استثنائي ، بفضل تقوية النشاط الحزبي والثقافي –  
الشوري في صفوف الجيش الأحمر : «إن هذا قد أحدث تطوراً  
سيكلولوجيا ، وبالتالي ، فإن جيشنا الأحمر استولى لنا على  
الدون» (٣) .

مراجعة التطور السيكلولوجي وتأثيره التطور السيكلوجي –  
تكلم هي ، من وجهة نظر السيكلولوجيا الاجتماعية ، مهمة الحزب  
الازدواجية في قيادة الجمهور وفي إنجاز مهام الثورة وفي بناء  
الشيوعية .

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٢ ، صنفة ٤٦ .

(٢) راجع ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٥٠ ، صنفة ١٢٧-١٢٨ .

(٣) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٨ ، صنفة ٣٦ .

## ٤ - تجميع الأمزجة الثورية

قبل انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية ، كان اهتمام لينين بالعمليات والظواهر الاجتماعية – السيكولوجية يتضمن اتجاهها معايرا تماما لاتجاه ما بعد الثورة . قبل الانتصار ما كانت المهمة الفعالة للسيكولوجيا الاجتماعية اللينينية لتنحصر أبدا في التربية الشيوعية الشاملة للجماهير . أن هدفا كهذا ، قد سماه خداعا للعمال من جانب أحزاب وزعماء الأهمية الثانية . فما دامت الظروف الاجتماعية – الاقتصادية راسمالية ، وما دامت الشغيلة ترزح تحت نير البورجوازية الذي يتخذ أشكالا انيقة في بعض الأحيان ، فإنه من الخداع التسليم بفكرة تزعم بأن أكثريه المستثمرين قادرة على أن تكتسب متانة المعتقدات الاشتراكية والطبع الاشتراكي . وفي الواقع ، كما قال لينين ، فإنه فقط بعد اسقاط الاستثمار ، « بعد ذلك فقط ، وخلال مسير النضال الطبقى الحاد يمكن تحقيق تعليم وتربيه وتنظيم أوسع الجماهير الكادحة والمستمرة حول البرولتاريا وتحت نفوذها وقيادتها ، وانقادها من الانانية والانقسام والعيوب والضعف ، تلك الأشياء المتولدة عن الملكية الخاصة ، وتحويلها إلى تحالف حر لعاملين أحرار » (١) .

---

(١) ن. ل. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤١ ، صفحة ١٨٦ .

قبل انتصار الثورة الاشتراكية كانت كل ملاحظات وافكار لينين خاضعة لهدف واحد حاسم . ففي ظروف النظام الرأسمالي – المطلق ، كان يجب التفكير بتركيز وجمع الامزجة الثورية في تيار واحد والنهوض بها ، وبالتالي على الامزجة المعرقلة للثورة . وقد قال لينين في عام ١٩٢٠ : « كانت المهمة عند الجيل السابق تحصر في اسقاط البورجوازية .. في تطوير الكراهية لها عند الجماهير وتطوير الوعي الطيفي والقدرة على تكاثف القوى الخاصة » (١) .

ولكن هذا لم يكن عبارة عن عملية تجري على خط مستقيم . فمن ناحية ، كما بيّنت تجربة عام ١٩٠٥ ، فإن « سيطرة الحكم الفردي الطويلة والمطلقة قد كدمت كمية لا نظير لها – ربما في التاريخ – من الطاقة الثورية لدى الشعب .. » (٢) . ولكن ، من ناحية أخرى ، فإن هذا الشعب كان يشكل جزءاً من المجتمع الرأسمالي ، ولهذا « لم يكن مجرد عن نواقص ونقاط ضعف المجتمع الرأسمالي . فهو إذ يناضل في سبيل الاشتراكية ، يناضل ضد نواقصه الخاصة » (٣) . وعلى كل حال ، فإنها تتقلب عليه أحياناً . وهكذا ، فمع بداية الحرب العالمية الأولى « انصررت ، إلى حين ، البورجوازية على البروليتاريا في كل مكان ، لقد أغرقتها بتيار عكر من الشوفينية والقومية .. » (٤) . ولكن ، وعلى أي حال ، فإن الاتجاه الرئيسي قد مهد لنفسه الطريق في نهاية المطاف .

ان جوهر هذا الاتجاه الرئيسي ، هو التحسس السيكولوجي المتكامل دوماً والوعي المتضح دوماً لانقسام المجتمع الى معسكرين

(١) المصدر السابق ، صفحة ٢٠٧-٢٠٨ .

(٢) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٦٠ ، صفحة ٢١٨ .

(٣) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٨ ، صفحة ١٩٦-١٩٧ .

(٤) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٧ ، صفحة ٧٩ .

متنازعين الى « نحن » و « هم » . وقد كتب لينين حول هذا الموضوع بقوة فائقة . « أما ممثل الطبقة المضطهدة ، حتى ولو كان من العمال ذوى الاجر الحسن والثقفين تماما ، فإنه يعرف من اين تؤكل الكتف ، وذلك ببساطة واستقامة مدحتين وبحزن راسخ ويوضوح في الرأى عجيب ، وهذه اشياء بعيد عنها اخونا المثقف بعد السماء عن الأرض . ان العالم يأسره ينقسم الى معاشرين « نحن » ، الكادحين ، و « هم » ، المستثمررين ... » « اي شيء مؤلم هذا » الموقف المقدى الى اقصى حد « للثورة » – هكذا يفكر ويشعر المثقف البورجوازى . « لقد ضفتنا » عليهم ، و « هم » لا يجرؤون على المشاكسة كالسابق – سنسقطهم تماما « – هكذا يفكر ويشعر العامل » (١) .

فيما بعد ، سنعود الى الحديث عن المعنى النظري الكبير الاتساع لمبدأ نحن وهم « هذا بالنسبة لسيكولوجيا الاجتماعية كعلم ، والذى صيغ هنا بشكل سريع من قبل لينين . وهو مهم بالنسبة لنا الان ، كدليل ملموس على النضوج الكامل والبالغ الاوج للروح الثورية عند البروليتاريا . لقد تكون هذا الاحساس بانقسام العالم الى « نحن وهم » ، فلا مفر من المعركة الحاسمة . ويكتب لينين : « ان عزيمة الطبقة العاملة وحزمنها لتحقيق شعارها – « الموت خير لنا من الاستسلام » – ليس عاملًا تاريخيًا فحسب ، وإنما أيضًا عامل حاسم ومظفر » (٢) . وهذا العامل يدفع البروليتاريا نحو المعركة المسلحة ونحو الانتصار العسكري . « ان الطبقة المضطهدة التي لا تطمع لأن تملك السلاح ولأن تحسن استخدامه ولأن تعرف فن الحرب ، لها طبقة ذليلة » (٣) .

(١) ف. ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، صفحة ٢٢٢-٢٢٣ .

(٢) ف. ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٠ ، صفحة ٤٤٩ .

(٣) ف. ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٩ ، صفحة ١٠٤ .

على الرغم من أن لينين يرى ، أن مهمة التحرير الكامل لنفسية الجماهير من التراث الرأسمالي لاتصبح ممكناً إلا بعد الثورة الاشتراكية ، إلا أن النضال الثوري نفسه والثورة نفسها ، مما مرب جبار للجماهير .

« ان التربية الأصيلة للجماهير لا يمكن ان تكون منفصلة عن النضال الثوري للجماهير نفسها . فالنضال وحده يربى الطبقة المستمرة ، والنضال وحده يكشف لها عن درجة قواها ويوسع مداركها ويرفع مؤهلاتها ويبين ذكاءها ويشبت ارادتها (١) . والعرب الثورية التي تجذب الجماهير المظلومة وتثير اهتمامها ، كما يقول لينين ، تثير الطاقة والمقدرة على صنع المعجزات (٢) . وهذا لا ينطبق على الطبقة الثورية الطبيعية ، البروليتاريا ، فحسب ، وإنما على الفلاحين كذلك . ان ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ ، كما يقول لينين ، هي « أول من خلق من جموع الفلاحين في روسيا ، المسحوقين بالذكرى اللعينة لعبودية الرق ، شعباً ابتدأ يدرك حقوقه وابتدأ يشعر بقوته » (٣) .

ولكن ، وما دام لا يوجد ذلك التأثير المعاكس ، للثورة نفسها ، على سيكولوجيا الجماهير في ظروف ما قبل الثورية ، «السلمية» ، فان جميع ملاحظات لينين الاجتماعية السيكولوجية تخضع لمهمة واحدة : كيف يمكن ، بشكل اكمل ، حساب وتوحيد القوى الكامنة في المجتمع التي باستطاعتها بشكل مباشر وغير مباشر ان تمهد لمجيء وانتصار الثورة . ان المهمة كانت تنحصر في القيام بلا كلل بدمج جميع جداول الاحتجاج في المجتمع وتباراته المبعثرة وقطراته المتفرة معاً . وبالطبع ، كان يجب

(١) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، صفحة ٢١٤ .

(٢) راجع ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، صفحة ٢٢٠ .

(٣) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، صفحة ١٤١ .

لأجل هذا ، وقبل كل شيء مراعاة الرابطة النهائية الموضوعية للمصالح ، ولكن الحديث كان يجري ، بالدرجة الأولى ، حول الناحية الذاتية ، السيكولوجية . وقد صاغ لينين اشارته تلك في هذه الكلمات : « ... جمع ، لو صح التعبير ، وتركيبز جميع قطرات وتيارات الهيجان الشعبي تلك ، التي تتضمنها الحياة الروسية بكمية اكبر بما لا يقاس مما تخيل وتفكر ، ولكن التي يجب ، بالضبط ، توحيدها في مجرى هائل واحد » (١) . ان علم الثورة الليبيي قد حتم البحث بكشاف الضوء العلمي عن آية امارات للنهوض وآية نزعات ، ولو كانت طفيفة جدا ، يمكن لها ان تتحدد وتتجمع في المذكر الثوري . وقد كتب لينين منذ عام ١٩٠١ ما يلى : ان الهيجان الاجتماعي ينمو في روسيا عند الشعب بأسره ، وواجب الاشتراكيين - الديمقراطيين ، هو تعليم المثقفين العماليين الطليعيين « أن يستفيدوا من أصوات الاحتجاج الاجتماعي المشتعلة تارة هنا ، وتارة هناك » (٢) .

برزت في المقام الاول مهمة تجميع مظاهر السخط والاحتجاج المترفة في صفوف الطبقة العاملة . وقد وصف لينين بعنابة فائقة بعض القوانين السيكولوجية حول التأثير المدى لنشاط بعض فئات من العمال على الآخرين . « ان عمال المصانع المجاورة يشعرون بارتفاع روحهم المعنوية ، حينما يرون ان رفاقهم قد باشروا النضال ... وفي الفالب ، ما ان يضرب مصنع واحد ، حتى تبتدئ جملة من الاضرابات في مجموعة كاملة من المصانع ، انه لعظيم ، الى هذا الحد ، التأثير المعنوي للاضرابات ، والى هذا الحد يؤثر على العمال ، كالمعدوى ، منظر رفاقهم الذين استحالوا ، ولو الى حين ، من عبيد الى انس متساوين مع الاغنياء ! » (٣) .

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٦ ، منحة ٧٧ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٥ ، منحة ٣٢٤ .

(٣) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤ ، منحة ٢٩٢ - ٢٩٤ .

ان العدوى ليست فقط انتشاراً افقياً لذلك المزاج وتلك الاعمال ، وانما تعنى كذلك انتقال هذا وتلك الى مستوى جديد . وقد كتب لينين بأنه « ليس من النادر في بداية الحركة ، ان يتمتع الاضراب بخاصية ايقاظ وتحريك الآخرين وتعيم الحركة والنهوض بها الى درجة عالية » (١) . وفي عام ١٩٠٥ ، صور لينين بروعة احد الأمثلة على ذلك التطور الكمي والكيفي في الوقت نفسه : « لقد ابتدأ باضراب عمال التشبييد في موسكو ، حسب ما يبلغوننا ، عمال غير راغبين . ولكن الحركة افلتت رأساً من ايديهم وأصبحت حركة مهنية واسعة . وينضم عمال مهن أخرى . وأن خروج العمال حتى الشارع ، حتى ولو كان لأجل اخبار الرفاق الذين لم يعلموا بالاضراب بعد ، يتتحول الى مظاهرة سياسية بأناشيد وخطب ثورية . والحقد المكتوم منذ زمن بعيد ضد المهزولة الشائنة حول الانتخابات « الشعبية » لمجلس الدواما يتفجر الى الخارج » (٢) .

انها لرائعة ملاحظة لينين حول تأثير الحركة الاضرالية للعمال على عواطف ومشاعر الفلاحين : « ان امواج الاضراب الجماهيري فقط ... هي التي ايقظت جماهير الفلاحين الواسعة من سباتها . وكلمة « مضرب » قد اكتسبت لدى الفلاحين معنى جديداً بالمرة : لقد عنت شيئاً ما بمثابة متمرد وثائر ، وهو ما كانت تعبّر عنه كلمة « طالب » . ولكن ، وحيث ان « الطالب » كان ينتمي الى الفئة الوسطى ، الى « العلماء » والى « السادة » ، فقد كان غريباً عن الشعب . وعلى العكس ، فإن « المضرب » هو نفسه من الشعب ، وهو نفسه ينتمي الى عدد المستثمرين » (٣) . في هذه الملاحظة ، يظهر مرة أخرى كيف يتكون التضاد ما بين

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، صفحة ٢١٨ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١١ ، صفحة ٢٤٦ .

(٣) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، صفحة ٢١٦ .

«نحن وهم» في السيكولوجيا الشعبية ، وعبر العديد من الجسور الصغيرة مثل تفضيل كلمة «مضرب» على كلمة «طالب» ، ينتشر الاحساس السيكولوجي بوحدة الفلاحين والعمال وبعدهم المشترك عن السادة ، على الرغم من أن الجذور الاجتماعية - الاقتصادية للنماذج الثوري لدى الفلاحين والعمال كانت مختلفة اختلافا جوهريا .

ان لينين يتكلم عن سبات الفلاحين بالمعنى السياسي وبمعنى بعدهم عن الحركة البروليتارية فقط . لقد استقبل الفلاحون عام ١٩٠٥ بشورتهم العمياء الخاصة .. «الفلاحون بحاجة الى الارض ؛ ولا يمكن لشعورهم الثوري وديمقراطيتهم الفريزية والبدائية ان يجدوا تعبيرا لهما الا في وضع اليد على ارض الملاكين » (١) .

ربط لينين ما بين هذه الصفة للسيكولوجيا وما بين خصائص الاقتصاد ، حيث ان بقایا القنانة في النظام الزراعي هي في روسيا اكثر من اي مكان آخر ، ومن هنا وفرة الثورية غير متكلفة والبادئة لدى الفلاحين ولدى الطبقة العاملة المرتبطة بهم ارتباطا وثيقا ، ولكن في هذه الثورية ، كما بوضوح لينين ، يوجد ، بلا شك ،وعي بروليتاري ، اقل مما لدى هؤلاء وأولئك من «الاحتجاج» المشتكى (٢) .

ان المناشفة لم يسقطوا من حسابهم ، بالكلام ، شأنهم شأن الاقتصاديين ، السيكولوجيا الاجتماعية . ولكن بالنسبة لهم ، فان الاختلافات السيكولوجية ، مثلا ، ما بين العمال والفلاحين كانت عبارة عن اظهار لموضوع دوجماتيكي فقط ، لا أساس له من

(١) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٩ ، صفحة ٢٥٧ .

(٢) راجع ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٤ ، صفحة ٣٤٢ .

التجربة حول استحالة التحالف المنطقى ما بين الطبقة العاملة والفلاحين في الثورة . لقد أقاموا جدارا حجريا ما بين البروليتاريا والفلاحين ، ولهذا فانهم لم يستطيعوا ولا مرة ان يشلوا بنظرية ثورية امزجة هؤلاء وأولئك .

حطم لينين بجرأة هذه الدوجماتات وبرهن بجرأة على تناقضها مع الماركسية . ولقد رأى بوضوح مطلق ان الثورة فى روسيا ، كما فى كثير من البلدان الأخرى ، يمكن ان تنتصر فقط عبر توحيد كل قوى الاحتجاج والسلط الهائلة الموجودة فى المجتمع ، وأن تشتيتها اكراما للدوجماتيات النظرية هو خيانة للثورة . أما التوحيد الحقيقى للجهود الثورية لدى البروليتاريا والفلاحين ، فكان يتطلب معرفة العام والخاص فى سيكولوجيتهم الاجتماعية ، وكذلك امكانيات تأثير العمال السيكولوجى على جمهور الفلاحين . لقد وصف لينين بكل صرامة وواقعية نقاط الضعف والعيوب لدى السيكولوجيا الفلاحية : « ... استمالوا الفلاحين كما يستميلون الاولاد الصغار .. كيف خدعوا الفلاحين ؟ لقد أشعوهם بالوعود » (١) . رايها كيف وصف لينين الجانب غير الثورى والرجعى في السيكولوجيا الفلاحية . ولكن ، حتى وهو يتكلم عن الجانب الثورى ، فإنه لا يحمل من التذكير بمستواه المنخفض بالنسبة لما عند البروليتاريا . ويكتب : « ولكن تلامح وتنظيم ووعي الفلاحين هى ، بالطبع ، اشياء ادنى بكثير مما لدى العمال . وفي هذا المجال لا يبقى سوى القليل من العمل الجدى والأصيل للتربية السيكولوجية » (٢) . ان الكلمات الاخيرة تبين ان لينين لم يكن يعتبر القضية مبنوasa منها . ولكن ، وقبل كل شيء ، فان جمهور الفلاحين ، بحكم وضعه الاقتصادي ، بما في

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ ، صفحة ٤٠١-٤٠٢ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، صفحة ٥١ .

ذلك الفلاحون الفقراء ، « كان يبدو اقل ثباتا من العمال في  
النضال لأجل العربية والاشتراكية » (١) .

غير أن هذه الملاحظات تخضع لدى لينين لمهمة واحدة :  
إيجاد كل ما من شأنه ، بما في ذلك جميع تلك الميزات  
السيكولوجية ، أن يساعد لا على تفرقة ، وإنما على توحيد ورص  
العمال والفلاحين في العمل الثوري المشترك . وهكذا ، على  
سبيل المثال ، فإن ميزة مدحشة تماما قد سر لها لينين في تلك  
اللحظة ، حينما اختل التفاهم مع الفلاحين بعض الشيء لدى  
السلطة البروليتارية السوفيتية ( عام ١٩٢١ ) : ولقد كتب ،  
أن الفلاح الذي لا يعطف في جملة من القضايا على سياسة  
السلطة السوفيتية « قد شعر بالأساءة ، لأن فقراء الفلاحين  
يقولون باته بورجوازي — كلمة مخزية .. هذه الكلمة تعني كل  
شيء : فعلها قامت دعايتنا وتحريضنا ونفوذ الطبقة العاملة  
المستمدة من الدولة » (٢) . وهذا الواقع ، بنظر لينين ، واحد  
من الأدلة الكثيرة على أن دعم الجماهير الفلاحية الأساسية ،  
باستثناء الكولاك والمضاربين ، ضمان للطبقة العاملة . لقد بدأ  
هذه الميزة وكانها سيكولوجية بحثة ، ولكنها تحدد مرحلة معينة  
لتكون « نحن » ، التي يعارض بها الفلاحون إلى جانب العمال ،  
« هم » أي البورجوازيين .

وهكذا ، فليس في زمن الثورات أو الأوضاع الثورية فقط ،  
وانما كذلك في زمن الأشكال الأولوية للنضال الثوري ، وحتى  
في زمن الرجعية القاتمة والهبوط ، كان تفكير لينين دائماً يبدأ  
يتلمس ويبتز ملامح وبدور الامكانيات الثورية لدى الجماهير  
الشعبية وميول السخط والاحتجاج الغفوية وغير الواقعية  
عندها ، وذلك لتجميع كل هذا ومضاعفته .

---

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٤ ، صفحة ٢٠٧ .  
(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٤ ، صفحة ٣١٨-٣١٧ .

. وهو ، اذا كان يهتم بالظاهرات السيكولوجية المعاكسة من تقاليد وروتين عادات كدسها الشعب خلال قرون ، فان هذا يحدث دائما من زاوية امكانيات التغلب على هذه العرقلة والعقبات التي تقف في طريق الثورة .

كتب لينين : « ان قوة العادة لدى الملائين وعشرات الملائين ، هي ارعب قوة » (١) . والتغلب على العادات هي اشقر مهمة ، لا قبل الثورة فحسب ، وإنما بعد نجاحها ايضا . وقد قال لينين ، بأن النضال ضد تلك العادات التي تسربت عبر مئات وألاف السنين ، وخاصة لدى كل مالك صغير ، هو عمل يتطلب في ظروف السقوط التام للطبقات المستثمرة سنوات طويلة من العمل المنظم الدءوب (٢) . أما عباء العادات في الفترة البعيدة لما قبل الثورة ، فهو أضنى وأشق بكثير .. قال لينين بمناسبة تعطيل دستور فنلندا من قبل الحكومة القيسارية في عام ١٩٠١ : « انا ما زلنا عبيدا لتلك الدرجة ، بحيث انهم يستخدموننا لأجل ادخال القبائل الأخرى في ظل العبودية » (٣) .

ولكن لينين يوجه لهذه الملامح والخصائص السيكولوجية – العادات والخضوع – اهتماما أقل بما لا يقاس مما يوجه لتجميع امزجة السخط والنضال حتى ولو كانت بمقادير صغيرة .

لا يزال الشعب وكأنه ينام ، ولكنه ينام نوما خفيفا ، بحيث ان الاسباب المرضية تجعله يقفز على قدميه بسهولة ، وهو في منتهى التهيج . وقد وصف لينين هذه الثنائية ، حينما كان يتحدث عن عشيّة ثورة عام ١٩٠٥ : « لكن الجماهير الواسعة كانت ما زالت بسيطة جدا وذات مزاج مسالم جدا وطيب جدا

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤١ ، صفحة ٤٧ .

(٢) راجع ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٩ ، صفحة ١٢١ .

(٣) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١١ ، صفحة ٣٦٥ .

ومسيحي جداً . وكانت تنهي بسهولة نوعاً ما ، وآية حادثة ظلم أو معاملة سيئة جداً من قبل الضباط أو تغذية سيئة وما شابه ذلك ؛ كان يمكن لها أن تتسبب في استيائه » (١) . إن هذه الميزة لسيكولوجيا الجماهير ، ويمكن تسميتها بالحدة ، قد لاحظها لينين نتيجة لانطباعات مباشرة في عام ١٩٠٥ . وقد كتب بأن « الانتخابات المضحك لا توقيط الجماهير أبداً . ولكن الأضراب أو التظاهر أو التمرد العسكري أو الفوران الطلابي الجدي أو الجوع أو التجنيد أو الصراع في مجلس الدوما ، الخ ، الخ ، الخ ... أشياء تستطيع على الدوام ، وفي كل ساعة أن توقيط الجماهير يتحقق » (٢) .

كل هذا عبارة عن ذرات ستكون منها ، في حينها ، انتفاضة واسعة وموحدة ، لكل قوى الاحتجاج المتراكمة في المجتمع ، ضد الملكية والنظام القائم . إن تزايد الأضراب الجماهيرية وجلب طبقات أخرى للنضال وحالة المنظمات ومزاج الجماهير - كل هذا سيشير بذاته إلى اللحظة التي يجب على كلقوى فيها أن تتحدد » (٣) .

ينوه لينين ، على الرغم من حيوية الإيمان الساذج بالقيصر وعلى الرغم من بدائية الآراء الاجتماعية ، إلى القيمة السبائك « للفريزة الثورية المبلغة لدى البروليتاريا » و « لاحتجاجها » و « لطاقتها » تلك الأشياء التي تخترق طريقها عبر حاجز بوليسية خارجية وعبر حاجز داخلية على شكل ثآخر وتختلف في آراء بعض القادة (٤) .

(١) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٠ ، صفحة ٣١٨ .

(٢) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١١ ، صفحة ٣٦٥ .

(٣) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، صفحة ٣٤٦ .

(٤) راجع ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٩ ، صفحة ١٧٧ .

ان مثل هذه النغرة في العادات والتقاليد الروحية ، قد وصفها لينين بصدق تجربة الجماهير في الحرب الإمبريالية . العالمية الأولى . و كما يقول ، فإن الملايين من انصاف البروليتاريين والبورجوازيين الصغار المجنونين ، حاليا ، بالشوفينية ، لن تأتى احوال الحرب لتخفيفهم او تبيدهم فحسب ، وإنما لتشقفهم وتعلمهم وتوقيفهم وتنظمهم وتقويمهم وتعدهم للحرب ضد بورجوازية « بلدتهم » والبلدان « الفربية » (١) . وفي عام ١٩١٧ ، يتكلم لينين حول هذا الموضوع ، ولكن بشدة أكثـر : « إن الشعب الروسي الذي كان في مستطاعه أن يسفك دمه بلا وجـل ، والذي كان ينفذ رغبة الحكومة التي تفظـلهـم ، غير عارـف لماـذا ويـاسـمـاـةـ اـهـدـافـ ، لكنـ بدونـ ايـ شـكـ وبـاضـعـافـ مضـاعـفـةـ منـ الطـاقـةـ وـالـبـطـولةـ حـارـبـ فيـ سـبـيلـ مـصالـحـ الاـشـتـراكـيـةـ (٢) وفيـ الخـاتـامـ ، نـرىـ لـزـاماـ انـ نـقـفـ عـنـدـ نـقطـتينـ :

على اي اساس تقوم ثقة لينين ، بأن مزاج الاحتجاج والخط وبيان طاقة المقاومة سيجتمعان على الدوام ؟ قبل كل شيء ، على اساس أن البروليتاريا يعود إليها موضوعيا دور المحرر الذي لا يحرر نفسه فحسب ، وإنما كل الكادحين وكل المجتمع من الاستثمار والبغضاء . ثم على اساس ان هذا النفوذ الذي تتمتع الطبقة العاملة يعتمد بدوره على نفوذ الخبرة والحركة الثوريتين العالميتين . وقد كتب لينين ، بأن النفوذ ضروري للطبقة العاملة . « ان نفوذ النضال العالمي للبروليتاريا ضروري لبروليتاري كل بلد . ونفوذ نظري الاشتراكية – الديمقراطية المالية ضروري لنا لتوسيع برامج ونكتيك حزبنا . ولكن هذا النفوذ طبعا

(١) راجع ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، صفحة ٤١ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٥ ، صفحة ١١٨-١١٧ .

لا يجمعه اى جامع بالتفوز الرسمى للعلم البورجوازى والسياسة  
البوليسية » (١) .

وختاما ، نتوه بأن سيكولوجيا الفنادن ، ليست هي وحدها التى كانت فى متناول يد لينين ، وإنما سيكولوجيا الفنادن العليا كذلك . فإذا حدث فى أحد قطبي المجتمع لكل قطرات وتيارات الاحتجاج والسطح ، فإن هذا يعني ، بأنه قد تطور فى القطب الآخر مزاج معاكس ومضاد . وسنورد نموذجا واحدا فقط من وصف لينين له . « يجب القول بشكل عام ان رجعيتنا ، بما في ذلك طبعاً البروفراطية العليا جميعها ، يظهرن احساساً سياسياً جيداً . وهم محظون بخصوص آية تجربة في النضال ضد المعارضة ضد « التمردات » الشعبية ضد الطائفين ضد الانتفاضات ضد الثوريين ، بحيث انهم يتصرفون « بيقظة » دوماً ويدركون احسن بكثير من المفلحين السذاج و « الافراس النهوكه الشريفة » عدم امكانية المصالحة ما بين الحكم المطلق وأى شكل من أشكال ذاتية وشرف واستقلال المعتقدات وكبريات المعرفة الحقيقية . وهم ، بعد ان تشربوا بروح التملق وال موقف الورقى من العمل ، هذه التى تسود لدى الموظفين الروس بجميع درجاتهم ، يعاملون بشك كل من لا يشبه شخصية جوجول ؛ كاكى اكاكييفيش ، او ، ولنستعمل تعبيراً أكثر عصرية ، كل من لا يشبه الشخص المنطوى على نفسه » (٢) .

---

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٤ ، صفة ٢٢٦

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٥ ، صفة ٢٢٧

## ٥ - من الثورة الروسية الأولى إلى الثانية

لو رتبنا ملاحظات واراء لينين في مجال السيكولوجيا الاجتماعية ترتيباً زمنياً ، لاتضح انها ، من الناحية الكمية ، سترتكز بوضوح حول مرکزين زمنيين : في ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ وفي اعوام ١٩٢٢ - ١٩١٧ . ان تفكير لينين قد التصدق مرتين بالتعاقا وثيقاً ومتماساً جداً بجوانب ذاتية ومحببة للغاية في حياة الطبقات والجماهير . ولقد رأينا ان لينين لم يكن سيكولوجياً ، محترفاً ، وإنما كان سيكولوجياً سياسياً وثورياً . ومن الطبيعي ان تكون هذه البصيرة السيكولوجية قد نمت وازدادت حدة اضعافاً مضاعفة ، تماماً في ذلك الوقت ، حينما ابتدأت المهمة الثورية تتجسد في الحياة .

ولكن القضية لا تنحصر فحسب في نمو اهتمام لينين بالسائل السيكولوجي للثورة ، وإنما كذلك في ان الثورات ، حسب يقينه الذي اكده في الحياة ، هي لحظات التغيرات والانعطافات المتواترة الى اقصى الحدود في نفسية الناس والجماهير الفقيرة وفي نفسية شعوب باسرها . والثورى الحقيقي ملزم ، في تلك اللحظات ، ان يكون سيكولوجياً اكثر من اي وقت كان . وقد وضع لينين بان « كل ثورة تعنى انعطافاً حاداً في حياة الجماهير الفقيرة من الشعب ... وكل انعطاف في حياة اي شخص يعلمه الكثير ويجمعه يعاني ويحس الكثير ، وكذلك الثورة ، تقدم لكل الشعب ،

وفي وقت قصير ، أكثر الدروس محتوى وقيمة . وفي وقت الثورة يتعلم ملايين ومئات الملايين من الناس في كل أسبوع أكثر مما يتعلمون خلال سنة من الحياة العادلة والخاملة » (١) . لقد كتب هذا في عام ١٩١٧ ، ولكن في معمان ثورة ١٩٥٥ كذلك ؛ تحس لينين وكتب الشيء نفسه . « في تاريخ الثورات تطفو على السطح النقاضات التي نضجت خلال عقود وقرون . وتصبح الحياة غنية بشكل خارق . ويظهر الجمهور على المسرح السياسي بشكل نشيط ، الواقع في القل دوما ، والذي غالبا ما يتجاهله ، لهذا السبب او حتى يزدريه المراقبون السطحيون . وهذا الجمهور يتعلم بالمارسة ، اذ يخطو على مرأى من الجميع خطواته الاولى ويتحسن طريقه ويحدد مهامه ويتتأكد من نفسه ومن نظريات ايديولوجييه جيما . وهذا الجمهور يقوم بجهود بطولية ليرتفع الى مستوى المهام العالمية الجباره التي فرضها التاريخ عليه ؛ ومهمما بلغت بعض الهزائم من الضخامة ومهما صعقتنا لسيول الدماء ولالاف الضحايا ، فلا شيء ابدا يساوى بقيمه هذا التثيف المياشير للجماهير والطبقات في مجرى النضال الثوري نفسه » (٢) .
 وهذه فقرة اخرى من محاضرة القيت في عام ١٩١٧ حول ثورة ١٩٥٥ . وان تاريخ هذه الثورة يبين كم يمكن لها ان تكون عظيمة تلك الطاقة الكامنة للبروليتاريا : « في المرحلة الثورية .. تستطيع البروليتاريا ان تطور طاقة النضال اكثر بعائنة مرة مما في الفترة العاديه الهايئه . وهذا يشهد على ان البشرية ، لغاية عام ١٩٥٥ ، لم تعرف بعد كم هو عظيم وهائل يمكن له ان يكون وسيكون توفر قوى البروليتاريا » (٣) .

(١) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، صفحة ٥٥ .

(٢) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٩ ، صفحة ٣٠٨-٣٠٩ .

(٣) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٠ ، صفحة ٣١٢ .

لقد اوردنا سابقاً غير قليل من اراء لينين حول قضيـاـ  
السيكولوجيا الاجتماعية التي ترجع الى اعوام ١٩٠٥ - ١٩٠٧ .  
وهي تشهد على الازدياد الشديد لاهتمام لينين في تلك الفترة  
بذاك الجانب من الحياة الاجتماعية .

سنورد ، علاوة على ذلك . ملاحظات لينين التي قالها في عام  
١٩٠٥ حول انهيار الايمان بالقيصر . وكما يقول لينين ، فمنذ ان  
نفجرت الطاقة الثورية والفريزية الثورية للطبقة العالمية بقوة  
لا تكبح ، على الرغم من كل الالاعيب والاحيل البوليسية ، كان يجب  
ان تتلاشى حتماً بقايا الايمان الطفولي بالقيصر (١) .

« ان اجيالاً طويلاً من حياة الموجيك المستوحشة والمنسبة في  
الزوايا النائية ، قد وطدت هذا الايمان . وكل شهر من حياة  
روسيا الجديدة ، المدنية ، الصناعية ، المتعلمة كان يزعزع هذا  
الايمان » (٢) . ولهذا فان العقد الاخير من الحركة العمالية لم  
يقدم بضعة آلاف من الاشتراكيين الديمقراطيين الذين انفصلوا  
بوعي عن هذا الايمان ، فحسب ، « لقد دبى عشرات الالوف من  
العمال الذين قوْضُوا عندهم الحس الطبقي المُشتَد نتيجة للنضال  
الاضرابي والدعائية السياسية كل اسس ايمان كهذا » (٣) . ومن  
هنا يأتي التنبؤ المتبادر والأفق السياسية المتباينة « لقد قلنا ان  
جماهير العمال والفلاحين التي كانت لا تزال تحتفظ ببقية من  
الايمان بالقيصر لم تستطع السير نحو الانتفاضة . وبعد العاشر  
من يناير يحق لنا ان نقول : الان يستطيعون السير وسيسيرون  
نحو الانتفاضة » (٤) .

(١) راجع ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٩ ، صفحـة ٢١٢-٢١١ .

(٢) المصدر السابق ، صفحـة ٢١٧ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ، صفحـة ٢١٨ .

كتب لينين في عام ١٩٠٥ : « ليس البارومتر وحده هو الذي يشير الى العاصفة ، بل يشير اليها كذلك كل تلك الاشياء التي انتزعاها من مكانها الاعصار الهائل للهجوم البروليتاري المتكافف » (١) . فكم من التغيرات الهائلة حدثت خلال هذه المرحلة القصيرة من العاصفة وكم من اوهام استُوصلت وكم ظهرت من ملامع وخصائص للسيكولوجيا جديدة بالمرة : « لقد حقدت وتكلبت البورجوازية وكذلك الملاؤكون . تعب الاناني الفيقي التفكير . تراخي وترهل المثقف الروسي . رفع راسه حزب الثراثيين الليبراليين والخونة الليبراليين ، المكاديت ، منتهزا فرصة التعب من الثورة ... أما تحت ، في المهدوء العميق للجماهير البروليتارية ولجماهير الفلاحين المفلسين والجائعين ، فقد سارت الثورة الى الامام ، مقوسة الدعائم ، موقظة النیام ببعد الحرب الاهلية » (٢) .

وهكذا حل نصر الثورة المضادة ، واتت سنوات الرجعية . وبكيفية ما يتناقض بشكل مفاجيء وغريب عدد الاراء التي يعبر عنها لينين بشأن السيكولوجيا الاجتماعية . وفي عام ١٩٠٨ ، يكتب لأول مرة وبالتفصيل عن البورجوازية الصغيرة وضيق الافق : « والآن ، في مرحلة تحكم الاضطهاد المضاد للثورة ، فإن البورجوازية الصغيرة تتکيف بجهن مع ارباب الحياة الجدد وتلتحق بالحكام المؤقتين وتتبرا من القدمى وتحاول ان تنساه » (٣) . ولكنـه كان يعرف جيداً بأنـ هذا في الظاهر فقط ، اما في اعماق حياة المجتمع ، فلا تستطيع اي قوة ان تزيل تلك التطورات النفسية التي حدثت زمان الثورة . انـها غير معكوسـة ، وهـ تعيش في اعماق ملـيين

(١) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٢ ، صفحة ١ .

(٢) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٤ ، صفحة ٢٨٣ .

(٣) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٧ ، صفحة ٣٨ .

الناس وستثبت عاجلاً أم اجلاً ، وكانها بذرة شتوية . ولقد استشهد لينين ، بالمناسبة ، على الإثر العميق ذاته ، الذي أحدثته كومونة باريس عام ١٨٧١ في الحياة النفسية للإيدين الناس . وقد كتب بان « لوحات حياتها وموتها ومنظر الحكومة العمالية المتولدة والقابضة بيديها خلال أكثر من شهرين على عاصمة العالم ومنشد نضال البروليتاريا البطولى وما قاسته بعد المزيمة ، كل هذا قد رفع الروح المعنوية للإيدين العمال وآثار آمالهم وجذب عواطفهم ناحية الاشتراكية . ان قصف المدافع الباريسية قد ابقط اكثراً فنادق البروليتاريا تأكيراً حينما كانت تقطن في نوم عميق واعطى في كل مكان دفعة لتعزيز الدعاية الثورية - الاشتراكية » (١) . وهكذا بالضبط تركت احداث ديسمبر عام ١٩٥٥ آثاراً لا تستطيع اي رجعية ان تزيله تماماً . وكتب لينين ، ان ماثرة وبطولة عمال موسكو قد أعطينا مثالاً لا ينسى لكل الجماهير الكادحة و « احدث استثناء عميقاً لم تتلاش آثاره بعد » ، على الرغم من كل الملاحقات ... بعد ديسمبر ، لم يعد الشعب كما كان .

لقد ولد من جديد » (٢) .

وانطلاقاً من هذه المقدمات ، وفي بداية النهوض الشوري الجديد ، بل وحتى قبل ان يبرغ فجره ، يلاحظ لينين بوادر سبيكلوجية غامضة بين العمال في الدرجة الاولى . هناك شيء ما يتراكم منذ عام ١٩١٠ ، فالاضرابات الاقتصادية والسياسية تالي مرة ، وتشابك وتكتل العمال مرة أخرى . « لقد ابتدأت البروليتاريا ، والشبيبة الديمقراطية مستمرة ، والشعب الروسي يستيقظ على نضال جديد ويسير للقاء ثورة جديدة . وقد بینت

(١) ف.و. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، صفحة ٢٢١-٢٢٢ .

(٢) ف.و. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٧ ، صفحة ٢٨٦ .

لنا بداية النضال ثانية بانها حية تلك القوى التي هزت السلطة الفيcirية في عام ١٩٠٥ » (١) . ان هذه الفترة تتصف بظواهر سيكولوجية خاصة ، والحق يقال . وهكذا ، ففي مرحلة تفيب الانتفاضات ، اظهرت الجماهير طلبات متزايدة على المعرفة النظرية العامة (٢) .

ومع تطور النهوض الثورى الجديد ، يزداد اهتمام لينين بالعمليات السيكولوجية لدى مختلف فئات الطبقة العاملة و مختلف فئات الفلاحين و ضمن الفئات الاجتماعية الأخرى . وهذا النهوض في نحوه المطرد قد أدى في نهاية المطاف الى ثورة اكتوبر .

كان لينين يلاحظ كل الجذور ، حتى ولو يدت تافهة . وقد اشار في عام ١٩١٢ الى انه « تلاحظ رغبة عفوية في القيام بتحصيلات ومساعدات أخرى لمصلحة الجياع » ، ويضيف بأن هذه الرغبة يجب ان تلقى الدعم من جميع الاشتراكيين – الديمقراطيين وان توجه بروح النضال الطبقي (٣) . ان الاضرابات العمالية في عامي ١٩١١ – ١٩١٢ وببداية المظاهرات والاجتماعات وكذلك الاضرابات الطلابية – كل هذا اجمله لينين في ذهنه ، كدلائل على « المزاج الثورى المتنامي » (٤) . وفي عام ١٩١٢ ، يرى هذا المزاج على انه التقاء لجداول كثيرة في تيار واحد . « من مختلف الاتجاهات تأتى الدلائل على انتهاء التعب والذهول الناجمين عن انتصار الثورة المضادة ، وهذا ما جنب ثانية نحو الثورة » : الاضرابات والتظاهرات والاجتماعات – « كل هذا عبارة عن مظاهر لزاج

(١) ف.ه.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، صفحة ٧٥ .

(٢) راجع ف.ه.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، صفحة ٥٨ .

(٣) راجع ف.ه.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، صفحة ١٢٩ .

(٤) المصدر السابق ، صفحة ١٢٦ .

الجماهير الثوري المتامي ضد نظام الثالث من يونيو » (١) . في كل مكان توجد مادة قابلة للاحتراق ، - في كل مكان يتجمع المزاج الثوري للجماهير ، حتى عند أولئك العمال وال فلاحين الذين خنقهم التدريبات القاسية للشکنة » (٢) . « ... هذه البلاد تدخل بأسرها مرحلة الاستياء . وأكثر فئات العمال وال فلاحين تاخرا هم على تماس مباشر وغير مباشر مع المضرين . ويظهر فورا على المسرح مئات الالوف من الدعاة الثوريين الذين يشتند تأثيرهم على الدوام ، لأنهم مرتبطون ارتباطا وثيقا بسواد الناس ، وبالجمهور ، ولأنهم يبقون في صفوتهم ويناضلون في سبيل الحاجات الملحة لكل عائلة عمالية ويجمعون الى جانب هذا النضال المباشر في سبيل الحاجات الاقتصادية الملحة الاحتجاج السياسي والنضال ضد الملكية لأن الثورة المضادة قد ادخلت في الملايين وعشرات الملايين كراهية عميقة الملكية ومبادئه فهم دورها ، فان شعار العمال الطبيعين في العاصمة الان - عاشت الجمهورية الديمقراطية ! ينطلق وينطلق بالآلاف الآقنية واثر كل اضراب الى الفئات المتأخرة ، الى الاقاليم النائية ، الى « الشعب » ، الى اعماق روسيا » (٣) .

ويتبنا لينين بالثورة الثانية المقبلة التي تكشف في عام ١٩١٢ عن احتياطي كامن من الطاقة الثورية اكثر بكثير مما في الثورة الاولى . ان الحركة لا تسير من الاعلى الى الاسفل على الرغم من ان وعي وخبرة وحزن الطبقة الطبيعية وطليعتها قد نمت . « اما عندنا ، فان نهوضا بهذا يسير بشكل عفوی » يسير لأن « عشرات الملايين من السكان النصف البروليتاريين وال فلاحين

(١) المصدر السابق ، صفحة ٣٤٠ .

(٢) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ ، صفحة ٣ .

(٣) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، صفحة ٣٤٢ .

ينقلون ، أن صع التعبير ، لطبيعتهم مزاج الاستياء المركز الذى يتفجر كالينبوع وينتفق عبر الحافة » (١) .

عام ١٩١٣ ، هو عام الاضرابات والمظاهرات ، عام الراية الحمراء التى تتحقق فى شوارع العاصمة ، عام الخطب والشعارات الثورية الموجهة الى الجمهور – وان اضرابا كهذا ، كما يتوه لينين ، لا يمكن احداهه بشكل مصطنع ، ولكن لا يمكن كذلك ايقافه حينما يشمل مئات ومئات الآلوف . ولكن اضرابا كهذا ، هو بحد ذاته وسيلة فقط لانتارة وتيرة مشاعر الاحتجاج والسطح فى طول هذه البلاد الواسعة وعرضها . « يجب ان يجد الحقد الصامت والتدمير المكتوم .. للقرية الى جانب استياء الثكنة فى الاضراب الثورى للعمال مركزا للجذب » (٢) .

لنتوقف عند التحولات التى ، كما لاحظ لينين ، احدثتها الحرب العالمية فى اعوام ١٩١٤ – ١٩١٧ في سينيولوجيا الجماهير سواء فى روسيا او خارجها . فلقد كان قسم من البروليتاريا غارقا فى الشوفينية البرجوازية ، ولكن العرب ، عموما ، لم تستطع ان توقف النهوض الثورى .

وهكذا ، حان عام ١٩١٧ ، حيث ارتفع النهوض الثورى عاليا ، بحيث اضحت ازمة ثورية . وها هي جماعة لينين كسيكلولوجي غنية من جديد ، وهى تفيض بمختلف المحتويات . وينبهر الانتباه منها ، ذلك الدور الكبير الذى يعطيه لينين لانتقال « الجمهور الواسع والتقلقل والتارجح » من معسكر الى آخر ، ذلك الجمهور الذى يقارنه لينين ، عموما والى حد ما ، بالفلاحين . وهو يتارجح الى اليمين احيانا والى اليسار احيانا اخرى ، كما

(١) ن.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٢ ، صفة ٢٨٢ .

(٢) المصدر السابق ، صفة ٢٨٧ .

يقول لينين . وفي الأشهر الأولى من عام ١٩١٧ ، ويشخص جمهور الجنود « تأرجح بعيداً عن الرأسماليين إلى جهة العمال الثوريين . وهذا التأرجح أو التحرك للجمهور ، القادر بقوته على حل كل شيء ، قد خلق الأزمة الثورية » (١) .

ان مفهوم « الأزمة الثورية » او « الحالة الثورية » يشكل أهمية كبيرة بالنسبة لدراسة التراث اللبناني في ميدان السيكولوجيا الاجتماعية .

فيما بين الثوريين الروسيتين ، تكون لدى لينين ذلك الجزء المهم من « علم الثورة » ، الا وهو نظرية الحالة الثورية . وذلك على الرغم من الانكار الاولية لتلك النظرية ، في واقع الامر ، يمكن ايجادها حتى في مقالات عامي ١٩٠٤ - ١٩٠٥ ، وقد صيفت ، بشكل رئيسي ، في عام ١٩١٣ ، في مؤلفي « اجتماع اول مايو للبروليتاريا الثورية » و « الدواما الفاسدة والليبراليون الحائزون » ، وأخذت شكلها النهائي في عام ١٩١٥ في مؤلف « افلام الأممية الثانية » . وفيما بعد جرى الحديث مرة أخرى عن جواهر نظرية الحالة الثورية ، وذلك في مؤلف « مرض الطفولة » اليساري « في الشيوعية » ( ١٩٢٠ ) .

ان نظرية الحالة الثورية تهمنا هنا من جانب واحد فقط ، باعتبارها اكثراً الامثلة يروزا على ذلك الدور الذي منحه لينين ، لسيكولوجيا ومتاز وفعالية الجماهير . وكما هو معروف ، فإنه من جملة العوامل المكونة للحالة الثورية ، قد اعطى لينين الدور الأهم لانتقال الجماهير من الحالة السلبية للغضب الى الحالة الابيجابية للاستياء والانتفاضة . ويكون هذا في مؤلفات عام ١٩١٥ مضمون المبادرتين الثانية والثالثة للحالة الثورية : « (٢) التفاهم

---

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، صفحة ٤٤٥ .

أكثر من المعاد ، لعز و مصائب الطبقات المستمرة ، (٣) الارتفاع الملاوحظ ، نتيجة للأسباب المشار إليها ، لفعالية الجماهير التي تسلم نفسها في زمن « السلم » للتهب بهدوء ، أما في الأوقات العاصفة ، فإنها تنجدب ، سواء أكان ذلك بواسطة حالة الامة بأسراها أم بواسطة « الاوساط العليا » نفسها ، نحو الانتفاضة التاريخية المستقلة » (٤) .

ان ازمة « الاوساط العليا » نفسها شيء مهم من وجهة نظر السيكولوجيا الاجتماعية ، من حيث كونها تشكل فجوة « يتسرّب منها تبرم و سخط الطبقات المستمرة » (٥) . وفي التقرير الموجز « أول مايو وال الحرب » (١٩١٥) ، اجمل لينين بایجاز جوغر الحالة الثورية : « (ا) الفئات الدنيا لا تزيد والعليا لا تستطيع (ب) تفاقم المصائب (ج) الفعالية الخارجية » (٦) .

وكما اوردنا ، فاننا حتى في مؤلفات عام ١٩٠٤ نجد جذورا لتعاليم لينين حول الحالة الثورية ، وهو ما نجده في تلك الصيغة القصيرة على سبيل المثال : يجب على حزب البروليتاريا « أن يقوم بالانتفاضة في فترة قمة اليأس الحكومي وفي فترة قمة الاستياء الشعبي » (٧) هنا تتجلى الناحية السيكولوجية بشكل معبر جدا . وقد كتب لينين في عام ١٩٠٥ ، بان شعار الانتفاضة بدون وجود دلائل الأزمة الواضحة ، هو في غير محله ، ويدخل ضمن هذا حالة ما اذا كان « استياء الجماهير واستعدادها للعمل لم يظهرها بعد بشكل محدد » (٨) .

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، صفحة ٢١٨ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، صفحة ٢٧٩ .

(٤) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٩ ، صفحة ١٣٤ .

(٥) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١١ ، صفحة ٣٦٧ .

وبعد فترة طويلة حينما كان في حوزة لينين تعاليم معدة عن «الحالة الثورية»، صور بتلك الخطوط الواضحة هذا الجانب من تشكل الحالة الثورية بعد احداث يناير عام ١٩٠٥ «... في حلال عدة اشهر تغيرت اللوحة تماماً. ان مثل الاشتراكيين - الديمقراطيين الثوريين قد تزايدوا الى آلاف ، والآلاف أصبحوا قواداً مليونين الى ثلاثة ملايين بروليتاري . وقد اوجد النضال البروليتياري استياء عارماً واحياناً حركة ثورية ، وفي اعماق الجماهير الفلاحية ذات الخمسين او المائة مليون وجدت الحركة الفلاحية تجاوباً في الجيش وادت الى انتفاضات في صفوف الجنود والى صدامات مسلحة ما بين قطمة واخرى من الجيش . وعلى هذه الصورة ، فان البلد الهائل بسكانه المائة والثلاثين مليوناً قد انخرط في الثورة ، وعلى هذه الصورة فان روسيا النائمة تحولت الى روسيا البروليتياريا الثورية والشعب الثوري » (١) .

وفي عام ١٩١٥ ، يحلل لينين تشكل الحالة الثورية الجديدة ويلاحظ فيها تلك الظواهر الاجتماعية - السبكلولوجية : « ان سخط الجماهير الفاسدة والتمني المبهم للفتات المظلومة والجاهلة من العالم « الديمقراطي » ، والتذمر الناشيء لدى « الفتات الدنيا » ، كل هذا باد للعيان ... وتجربة الحرب ، كتجربة كل ازمة في التاريخ وكل داهية كبيرة وكل انعطاف في حياة الانسان ، تعب وتضني البعض ، ولكنها في المقابل تنور وتنقى الآخرين » (٢) .

ويحل عام عظيم في تاريخ العالم - عام ١٩١٧ . ان «الحالة الثورية في اوربا تبدو للعيان . وتبدو للعيان قمة سخط الجماهير

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٠ ، صنعة ٣١٠-٣١١ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، صنعة ٢٢٠ .

واستيائها وغضبها . وعلى الاشتراكيين - الديمقراطيين الثوريين ان يوجهوا قواهم وجهاً تقوية ذلك التيار » (١) . وفي رسالة الى الرفاق يجعل لينين ما هو معروف لديه حول مزاج الجماهير : « ان « الجميع » يفسرونـه كشيء مركز ومنـتظر ، .. ان الجميع موافقون بصدق السخط الشديد لدى العمال على تردد المراكز في قضية المعركة « الاخيرة » و « الحاسمة » .. ان « الجميع » يصفون بالاجماع مزاج اكثـر الجماهـير اتساعـاً كشيء قـريب الى اليـأس » (٢) . ويـجمل لـينـين تلك الـامـزـجـةـ بـهـذـهـ الكلـمـاتـ :

### « تذبذبات لدرجة ما » (٣) .

ذلكـ هوـ العـاجـبـ السـيـكـولـوجـىـ لـعـمـلـيـةـ النـموـ الـجـامـعـ لـسـعـةـ الجـمـهـورـ الفـعـالـ وـقـوـةـ فـعـالـيـتـهـ ،ـ -ـ «ـ بـادـرـةـ كلـ ثـورـةـ حـقـيقـيـةـ :ـ التـضـخمـ السـريعـ لـغاـيـةـ عـشـرـ اـضـعـافـ وـحتـىـ مـائـةـ ضـعـفـ لـعـدـدـ مـمـثـلـ الشـفـيلـةـ وـالـجمـهـورـ الـمـسـتـثـمـرـ الـقـادـرـينـ عـلـىـ النـضـالـ ،ـ وـالـذـينـ كـانـواـ خـامـلـينـ إـلـىـ الـآنـ » (٤) . «ـ الثـورـةـ لـاـ يـوصـىـ عـلـيـهـاـ ،ـ الـثـورـةـ عـبـارـةـ عـنـ نـتـيـجـةـ لـانـفـجـارـ سـخـطـ الـجـماـهـيرـ الشـعـبـيـةـ » (٥) .

(١) ف.أ. لـينـينـ .ـ المؤـلـفاتـ الـكـاملـةـ ،ـ المـجلـدـ ٢٠ـ ،ـ صـفـحةـ ٢٤٧-٢٤٨ـ .

(٢) ف.أ. لـينـينـ .ـ المؤـلـفاتـ الـكـاملـةـ ،ـ المـجلـدـ ٢٤ـ ،ـ صـفـحةـ ٤١٢ـ .

(٣) ف.أ. لـينـينـ .ـ المؤـلـفاتـ الـكـاملـةـ ،ـ المـجلـدـ ٢٢ـ ،ـ صـفـحةـ ٣٦٢ـ .

(٤) ف.أ. لـينـينـ .ـ المؤـلـفاتـ الـكـاملـةـ ،ـ المـجلـدـ ٤١ـ ،ـ صـفـحةـ ٧٠ـ .

(٥) ف.أ. لـينـينـ .ـ المؤـلـفاتـ الـكـاملـةـ ،ـ المـجلـدـ ٢٢ـ ،ـ صـفـحةـ ١١٧ـ .

## ٦ - الفواهر والمهام السيكولوجية الجديدة بعد أكتوبر

لربما كان لينين يبرز أمامنا كسيكولوجي ، في سنوات ما بعد الثورة أكثر من أي وقت آخر . هنا ، يتبدل كل التوجيه المبدئي . قبل الثورة الاشتراكية لم يكن هنالك مجال للحديث عن التحويل الشامل للإنسان ، فقد رباء ، في الفالب ، النضال الثوري وغيره لدرجة كبيرة . وبعد الثورة الاشتراكية أصبحت مهمة التخلص من الارث الرأسمالي في نفسية الشفيلة شيئاً ممكناً ، على الرغم من أن هذا كان عملية صعبة وطويلة للغاية .

قبل انقلاب أكتوبر بعده أيام ، يلقى لينين بضع كلمات لم نسمعها منه من قبل ولا مرة واحدة : « لا يمكن الاعتماد على مزاج الجماهير لأنّه متقلب ولا يخضع للحساب ، يجب علينا الاعتماد على التحليل والتقييم الموضوعيين للثورة . لقد اعطت الأفعال » (١) . نعم ، ففي عشية الاستيلاء على السلطة ، أخذ لينين يرى ذلك المزاج المهم الوحيد ، والذى غدا كل ما عداه غير جوهري وفي الدرجة الثالثة . لقد منح الشعب ثقته للبلاشفة . وغدا ستحدث الثورة الاشتراكية ، أما بعد الفد ، فأن المهام

---

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، منحة ٢٩٤ .

السيكولوجية جمِيعاً ستصبح مبدئياً على نحر آخر ومعاكس لحد ما لتلك التي كانت فيما قبل الثورة الاشتراكية . وبالطبع ، سيحدث بشكل غير سريع بالمرة ، كما يتمنى لينين ، ذلك التطور المرتبط « بالانتقال من الخمول التارخي الى الابداع التارخي الجديد » (١) ، من الحماس المقيد بالمهام الثورية الى الحماس الواعي الموجه نحو حياة جديدة . ولكن ، ومهما كان الأمر ، فقد افتتحت منذ الان صفحة جديدة من السيكولوجيا الاجتماعية اللبنانية .

المهم ، من الان فصاعداً ، هو الاحتفاظ بالسلطة المكتسبة . فإذا كان هدف السيكولوجيا الثورية قبل ثورة اكتوبر ، هو قلب السلطة ، فإن الهدف الان ، هو المحافظة عليها . وقد كتب لينين في عام ١٩٢٠ ، بأن العمال وال فلاجين وجنود الجيش الأحمر « عانوا ، على الأغلب ، خلال هذه السنوات الثلاث أكثر مما عانوا في السنوات الأولى من العبودية الرأسمالية . انهم ساروا وجهة الجوع والبرد والالم ، وذلك فقط لكي يحافظوا على السلطة » (٢) . ومنذ بداية الثورة تنبأ لينين ، بأن بطولة وطاقة وتضحية الجماهير لن تنضب في الذود عن الانتصار الشوري وفي التغلب على كل المصاعب في طريق السلطة السوفيتية . ويمكن القول ، مستخدمين عبارته التي قالها في سنوات مبكرة ، بأن « نحن » و « هم » أصبحنا الان على نحو مغاير تماماً « نحن » ، تعنى الشعب الشوري نفسه وكذلك سلطاته الفتية التي اقيمت لتوها . ذلکم ما كان يجب عليه أن يضاعف بشكل جبار القوى المعنوية لكلمة « نحن » وان ينزع من الاعماق مشاعر هائلة جديدة . وقد كتب لينين بعد اكتوبر بقليل : « ان النصر سيكون الى جانب المستثمرين لأن معهم الحياة ، معهم قوة

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، صفحة ١٥٤ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٢ ، صفحة ٥ .

الاكثرية ، قوة الجمهور ، قوة المصادر التي لا تنضب لـ كل الاحتياط المتفاني والقيادي والشريف والمندفع قدماً والمستيقظ على بناء الجديد والجبار لطاقة وعبريات ما يسمى « بعامة الشعب » من العمال والفلاحين . ان النصر حلفهم » (١) . وبالطبع ، فان فعالية الثورة المضادة قد ازدادت كذلك . ولكن « مهما كان السخط والاستياء عظيمين في بعض الدوائر ، فإنه في اعمق الجماهير الشعبية تجري عملية تشكيل وتكتيس الطاقة والنظام التي ستعطينا العلبة لتوجيه كل الضربات » (٢) .

ومن هنا ، من النضال في سبيل الحفاظ على قضية الثورة وانتصارها تبتدئ وتطور عملية الولادة السيكولوجية للانسان الجديد . وفي المكان الاول تتجلى « آيات الجرأة والصبر » من قبل العمال والفلاحين على جبهات الحرب الاهلية ، والبطولة ، البطولة ، ومرة اخرى البطولة من قبل الشفيلة في المؤخرة . وعلى الاثر يحدث انقلاب في اعمق الوعي . وفي عام ١٩١٩ ، وفي المقالة الخالدة « البداية العظيمة » ، يكتب لينين : « ان هذا بداية لانقلاب اكبر صعوبة واكثر جوهريّة واكثر جذرية واكثر حزماً من اسقاط البورجوازية ، لأن هذا انتصار على الخمول الذاتي والفساد والأنانية البورجوازية الصغيرة ، على تلك العادات التي اورثتها البرجوازية اللعينة للعامل والفللاح » (٣) . وبعد خلع البورجوازية فقط ، يستطيع « كل الكادحين والمستثمرين ان يطوروا لأول مرة في التاريخ كل مبادرة وكل طاقة عشرات الملايين من الناس الذين سحقتهم الرأسمالية » (٤) .

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٥ ، صفحة ١٩٤ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، صفحة ٨٦ .

(٣) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٩ ، صفحة ٥ .

(٤) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤١ ، صفحة ١٨٧ .

كان يجب للمحافظة على السلطة المتنسبة انجاز بعض المهام الاكثر الحاجا ، بما في ذلك الانتصار على الخراب والجوع واصلاح الانتاج في الداخل والانتصار على العدو في الجبهات . وقد أشار لينين في مقاله « البداية العظيمة » إلى هذه الدائرة المفلقة الفريدة من نوعها : لكنى نتخلص من الجوع يجب أن نرفع انتاجية العمل . وكتب لينين : « من المعروف أن تناقضات كهذه ، تحمل في الواقع بخرق هذه الحلقة المفرغة وبتفجير مزاج الجماهير وبمبادرة بعض الجماعات البطولية التي غالبا ما تأدب على أساس ذلك التفجير دورا حاسما ». ان مبادرة بطولية كهذه ، قد قام بها العمال المستركون في السبت ، « على الرغم من أنهم كانوا تعين ومجهدين ومنهكين من سوء التغذية » (١) . وهذه الحركة رفعت من سمعة العمال في أعين الفلاحين ومن سمعة الشيوعيين في صفوف اللاحربيين (٢) . وحتى ما قبل « البداية العظيمة » بوقت طويل ، طرح لينين قضية ضرورة التغير الم قبل في سيكولوجيا العمل . وقد كتب حول نفسية مثل الجمهور المستمر الموروثة عن الماضي قائلا : « من المفهوم ان كل انتباشه وكل خواطره وكل قوى روحه موجهة ، وقتا معلوما ، وجهة ان يسترد انفاسه وينتصب ويستدير ويتناول اقرب الخبرات التي يمكن تناولها والتي لم يعطها له المستثمرون المخلوعون . من المفهوم ان وقتنا معلوما هو شيء ضروري لا لكي يشعر بأنه لا يجوز ان « يتناول » ويختلس هكذا بساطة ، وبيان هذا يؤدي الى تقوية الخراب والفناء . ان تغيرا مطابقا في ظروف

(١) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٩ ، صفحة ٤١ .

(٢) راجع المصدر السابق ، صفحة ٢٨٠ .

حياة ( وبالتالي في سيكولوجيا ) الجمهور الكادح البسيط قد ابتدأ لتوه فقط » (١) .

وبتعبير آخر ، فان التغير السيكولوجي في الجمهور كان يجب ان ينبع ، في وقت واحد ، عن البطولة في السعي لعدم السماح باعادة النظام الرأسمالي - المطلق القديم ، وعن الشعور بعدم امكانية التخلص من الكوارث الاقتصادية الا ب موقف جديد من العمل .

« ان نظام العمل والطاقة العنيفة في العمل والاستعداد للتضحية والاتحاد الوثيق ما بين الفلاحين والعمال - ذلك ما ينقذ الشفيلة من نير الملاكين والرأسماليين الى الابد » (٢) . في المؤلف الذي جرى الاستشهاد به فيما تقدم « المهام الدورية للسلطة السوفيتية » الفنى خصوصا بالافكار المتطرفة الى سيكولوجيا الجماهير ، كتب لينين : « في بلد فلاحى ، صغير اسقط القيصرية منذ عام فقط .. بقى ، طبعا ، غير قليل من الفوضوية العفوية التي عززتها الوحشية والهمجية المرافقان لكل حرب طويلة ورجعية ، وتكون غير قليل من امزجة اليأس والخذل المجرد » ، ومن المفهوم ، يتبع لينين ، ان هذه الجهود الطويلة والعنيفة للقسم الظليع من الطبقة العاملة وال فلاحين شيء ضروري « لأجل التغيير الكامل في مزاج الجمهور وانتقاله الى العمل الصحيح المنتظم » (٣) . وفي ذلك المؤلف نفسه كتب لينين فيما بعد : « يجب أن نتعلم كيف نجمع سوية ، ديمقراطية المجتمعات العاشرة والمتقدمة ، بفيضان الريع والمنطقة من كل الشطآن للجماهير الكادحة ، مع النظام الحديدى

(١) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، صفحة ٢٠١ .

(٢) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٨ ، صفحة ٢٤١ .

(٣) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، صفحة ١٧٥-١٧٤ .

وقت العمل ومع الطاعة المطلقة لرغبة شخص واحد ، الموجه السوفيتى ، وقت العمل » (١) .

تلکم كذلك افکار لینین حول تبدل سیکولوجیا العمل حسب الشکل الاولى لهذا المؤلف ، « المهمات الدورية للسلطة السوفيتية » . في البداية ، يكتب لینین حول سیکولوجیا العمل في ظروف الظلم الراسمالى : « لم يكن هنالك مفر على هذه التربة من ايجاد سیکولوجیا كهذه ، بحيث ان الرأى العام للشفيقة لا يتعقب العمل المتزوى او التقاус عن العمل فحسب ، بل على العكس ، يرى في هذا احتجاجا لا مفر منه وقانونيا او وسيلة لمقاومة مطالب المستثمر الزائد » . ويشير لینین فيما بعد ، الى انه وسط سكان جاعوا وانهکوا في سنى الحرب ، كانت شيئاً مفهوماً تماماً ولا مفر منه حوادث الهبوط الكامل في المزاج . وبالتالي في التنظيم . وكيسیکولوجی ، ينوه الى ان الامل في التغيير السريع بواسطة بضعة مراسيم « هو شيء باطل ، كما لو اتنا حاولنا عن طريق النداءات ان نسبغ نشاط الروح والمقدرة على العمل لانسان ضربوه حتى قارب الموت » . ومع ذلك فان السلطة السوفيتية التي اقامها الشفيقة انفسهم ، والتي تأخذ بعين الاعتبار « التحسن المطرد في صفوف الجماهير الكادحة » ستكون قادرة ، في رأي لینین ، على تغيير سیکولوجیا الشفيقة بشكل جذری (٢) . وقد كتب لینین ، ان النظرة البورجوازية الصغيرة ما زالت وطيدة : على ان اختطف بشكل اکثر ، وليكن هنالك ما يكون ، ولكن هذا الجمهور بالذات ، دعا لینین « لا يقاظه والنھوض به لمستوى الابداع التاريخي » (٣) ، دعا لتحول اخلاقه « التي دنسها الملكية الفردية » (٤) .

(١) ف.ا. لینین . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، صفحة ٢٠٣ .

(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٤٥ .

(٣) ف.ا. لینین . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، صفحة ١٩٨-١٩٩ .

(٤) ف.ا. لینین . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤١ ، صفحة ١٨٦-١٨٧ .

نوه لينين ، بأنه « يجب على الجماهير الا تعلم فقط ، وانما ان تشعر بأن تخفيض فترة الجوع والبرد والفقر يعتمد تماما على انجازهم السريع لمخططاتنا الاقتصادية » (١) . ويطور لينين بشكل متكملا دوما الرأى المتعلق بضرورة جمع الحماس السياسي العام وحماس العمل المنبعث منه ) بالمنفعة الاقتصادية وبنظام العمل القائم على المصلحة الخاصة .. وقد كتب : فمن البداية يجب ان نحسب اصلاح الانتاج ، معتمدين على رغبة الحماس الشعبي ، وفيما بعد فهمنا أن المصلحة الخاصة ترفع من الانتاج كذلك (٢) . وبالطبع ، فان الحماس والاندفاع والبطولة ، اشياء ستبقى حية ابدا ، فقد لمب هذا الحماس دورا كبيرا ، وهو يؤثر خلال سنوات طويلة في الحركة العمالية الدولية ، ولكن حان وقت المنفعة الاقتصادية والتجارة (٣) . ولأجل ايصال عشرات الملايين الى الشيوعية يجب بناء الاقتصاد « لا على الحماس مباشرة ، وانما بواسطة الحماس المتولد عن الثورة العظمى ، على اساس من الاهتمام الخاص ومن المصلحة الخاصة ومن الفائدة الاقتصادية (٤) .

ان الحديث لا يدور ابدا عن بواعث انتاجية وشدة العمل فحسب ، ففي الكائن وفي الناس يحدث انقلاب داخلي . « انا وصلنا الى لحظة عظمى في ثورتنا ، لقد رفعنا جماهير البروليتاريين ورفعنا جماهير الفقراء في القرية نحو تأييدهنا الوعي . وهذا ما لم تفعله اي ثورة » (٥) . وبقوة هائلة وعملاقة ، ترن في وعي الشعب وتتجلى ، بصورة متعددة ، هذه « النحن »

(١) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٢ ، صفحة ١٥٤ .

(٢) راجع ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٤ ، صفحة ١٥١ .

(٣) راجع المصدر السابق ، صفحة ٢١٦ ، ٢٢٥-٢٢٤ .

(٤) راجع ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٤ ، صفحة ١٥١ .

(٥) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٢ ، صفحة ٢٤٩ .

الجديدة تماماً والمولدة عن الثورة الشعبية الظافرة . لقد بين تاريخها ذو السنين ، كما كتب لينين في عام ١٩١٩ ، « لا نموذجاً للقيام بالواجب فحسب ، وإنما نموذجاً للبطولة الاسمي وللحماس والتفاني الثوريين اللذين لم يعهد لهما نظير في العالم » (١) .

وبنطزة ثاقبة تنفذ إلى أغوار المستقبل ، كتب لينين في عام ١٩١٧ : « أن الابداع الجماهيري حقاً والواسع لامكانية اظهار الهمة والتسابق والمبادرة الجريئة موجود الآن فقط » (٢) . وكذلك ، فالمهام الجديدة تبرز نوعاً جديداً من الناس . « عشرات الآلوف من صفة العمال الطليعيين ، المخلصين للاشتراكية وغير القادرين على الرشوة والاختلاس والقادرين على إيجاد قوة حديدية ضد الكولاك والمضارعين والسلابين والمرتشين والمشوشين ، ذلکم ما هو ضروري » (٣) . ويتناها لينين في وقت مبكر جداً بالدور التسامي الم قبل مختلف أشكال المباريات في النظام الجديد لعلاقات الناس الاجتماعية وعلاقات العمل بشكل خاص . وتبعد المباراة في نظره كشكل للابتكار والمبادرة ، وكذلك كسبيل لتطوير النظام الجديد للعمل .

اعار لينين اهتماماً خاصاً لذلك الجانب المهم بالنسبة للسيكولوجيا الاجتماعية من المباراة ، اذ ينكشف فيها مجال رحب لتأثير قوة المثال . وبتعبير آخر ، فان الحديث يدور عن ظاهرة تقليد القدوة ، وكذلك بالعكس ، أي الابتعاد عن المثل السلبية . وقد كتب لينين في مؤلف «المهام الدورية للسلطة السوفيتية» الذي ورد ذكره أكثر من مرة ، أن الاشتراكية « تفتح لأول مرة

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٩ ، صفحة ٤٢٠ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٥ ، صفحة ١٩٦ .

(٣) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، صفحة ٢٥٦ .

الطريق لاجل مبارأة ذات مستوى جماهيري حقا ، وقال مدققا ، ان المحاسبة والعلانية يحولان الحسابات البير وقراطية المبنة « الى امثلة حية تنفر منها او تجذب اليها » (١) . ان قيمة المثال في الحياة الاجتماعية زمن الرأسمالية شيء محدود . وعند انتقال السلطة الى يدي البروليتاريا تتغير القضية جذريا . « ان قوة المثال تكتسب لأول مرة امكانية اعطاء تأثيرها الجماهيري » (٢) . وهذا جانب من اهم الجوانب في تشكل السيكولوجيا الجديدة اجمالا .

« من الطبيعي ، انه يجري لدى الجماهير ، التي الفت لتوها نيرا وحشيا لا نظير له ، غليان عميق وواسع ، بحيث ان بناء اسس جديدة لنظام العمل من قبل الجماهير عملية طويلة جدا ، وانه قبل الانتصار الكامل على المالك والبورجوازية ، لا يستطيع حتى ان يتدارء بناء كهذا » (٣) . وعلى العكس ، ففي ظل الاشتراكية ، كما كتب لينين الى كرجيچانوفسكي في عام ١٩٢٠ ، « ان قضية مثل الكهربية ، هي قضية يجب لحلها الدعوة الى « المسابقة ومبادرة الجماهير » (٤) .

انها لفتية جدا اقوال لينين التي قيلت في وقت ما بقصد المسائل السيكولوجية المتعلقة بالعرب الاهلية والنضال ضد التدخل . وبعنهية ، يسجل لينين الاستعداد او عدم الاستعداد السيكولوجي للحرب لدى الجماهير . ويكتب في فبراير عام ١٩١٨ : «نعم ، ليس في وسع الجماهير الان ان تخوض الحرب ، ولكنه يتطلب ثقة : سيأتى زمن اباء لم يسمع بمثلها ،

(١) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، ١٩١-١٩٠ ، صفحة ١١١-١١٢ .

(٢) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، ١٩١ ، صفحة ١٩١ .

(٣) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، ١٨٩-١٨٨ ، صفحة ١٨٩-١٨٨ .

(٤) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٥٢ ، ٣٩ ، صفحة ٣٩ .

وسيرى الشعب فى نفسه القوة والامكانية على ابداء المقاومة (١) .  
 وان لينين لا ينتظر ذلك الانعطاف ، بل بعد له . ويوضح دعوة  
 الفلاحين البسيكوفيين ، العائدين من الجبهة ، الى المؤتمر  
 السابع هكذا : « لكي يتحدىوا كيف يتصرف الالمان ، ولكن يوجدوا  
 تلك السينکولوجيا ، حينما يتماثل الى الشفاء الجندي المريض  
 الغرار رعبا ، ويقول : نعم ، لقد فهمت الان ، ان هذه الحرب  
 ليست تلك التي وعد البلاشفة بايقافها ، هذه حرب جديدة  
 يخوضها الالمان ضد السلطة سوفييتية . ووقتها بذوق  
 الشفاء » (٢) . وبعد ذاك بقليل : « لقد مضت تلك التهور ،  
 وجاء الانعطاف ، مضى ذلك المهد حينما كنا بلا قوة .. وتكون  
 نظام جديد ، وجاء الى الجيش اناس جدد يهبون حياتهم  
 بالألاف » (٣) .

وخلال تاريخ الحرب الاهلية باسره ، تثير اهتمام لينين  
 مسائل وسينکولوجيا الجبهة والمؤخرة بشكل مستمر . فهو ، من  
 ناحية ، ينوه حتى الى تلك الجزئيات ، مثل تأثير برد الخريف  
 على الروح المعنوية : « تعلمون ، ان برد الخريف يؤثر على مزاج  
 جنود الجيش الاحمر ، فيعكسه ويخلق مصاعب جديدة » (٤) .  
 وهو ، من ناحية اخرى ، يراعى العامل السينکولوجي فى التغلب

(١) راجع ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٥ ، صفحة ٢٧٩ .

(٢) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، صفحة ٣٠ ، ان تعبير  
 « الجندي المريض بالغرار رعبا » الذى استعمله لينين هنا لم يكن  
 صدفة ، فهو يتعلق بميدان خاص للسينکولوجيا العسكرية ، قارن ذلك  
 بما كتبه لينين في عام ١٩١٢ : « ان تراجع الازراك قد تحول الى فرار  
 فوضوى لجموع مسحورة » جائمة ، منهوبة ، مخبولة » ( ف.ا. لينين .  
 المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ ، صفحة ١٥٩ ) .

(٣) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٧ ، صفحة ١٢٣ .

(٤) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤١ ، صفحة ٣٢٢ .

على كل المصاعب العسكرية المكنته : « أن الحالة صعبة للغاية . ولكننا لا ننسى لأننا نعرف أنه في كل مرة تنشأ فيها حالة صعبة بالنسبة للجمهورية السوفيتية ، يبدى العمال آيات من الجرأة ويقدمون المثال الذي يشجع ويلهم القوات ويقودونها نحو انتصارات جديدة » (١) .

ونشير هنا الى اهتمام لينين اليقظ والتنبه نحو العمليات السيكولوجية في جمهور الفلاحين . انه ينوه الى الفرق الشاسع في الظروف الاجتماعية - السيكولوجية للعمال والللاحين . فالعمال ، كما يقول ، هم ، في كل العالم ، موحدون بهذا القدر او ذاك . غير ان محاولة تعديل سيكولوجيا الفلاحين المشتتين . هي جزء مهم من المعركة في سبيل الاشتراكية . « ولكن ليست هنالك بعد ، ولا في مكان في العالم محاولات منتظمة ومتفاتنة ومنكرة للذات لتوحيد أولئك الذين في القرى وفي الانتاج الزراعي الصغير وفي المحاھل والظلمام قد تبلدو ، نتيجة لظروف حياتهم » (٢) . وقد تطلب حل مهمة البناء الاجتماعي هذه وقتا طويلا . وهي لم تكن محلولة بالمرة لغاية عام ١٩٢١ ، حينما تجلت خصائص سيكولوجيا الفلاحين بقوة هائلة وأشارت مباشرة الى ضرورة تغيير السياسة الاقتصادية للدولة السوفيتية . وقد كتب لينين في عام ١٩٢٢ « لقد كانت هذه اول مرة ، وآخر مرة كما أمل ، في تاريخ روسيا السوفيتية ، حينما كانت جماهير غفيرة من الفلاحين عن غير وعي ، وانما بفطرتها ومزاجها ضدنا .. والسبب يرجع الى اتنا في زحفنا الاقتصادي قد تحركتنا بعيدا جدا الى الامام .. والى ان الجماهير قد شعرت بما لم تستطع وقتها ، ان تصوغه بويعي » (٣) .

(١) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٩ ، صفحة ٢٢٨ .

(٢) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، صفحة ٤١١ .

(٣) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٥ ، صفحة ٢٨٢ .

وهكذا ، ترن في ملاحظات لينين الاجتماعية – السيكولوجية ، في السنوات التي تلت اكتوبر ، أنفام جديدة بشكل جوهرى . فإذا كانت تهمه ، سابقا ، تلك القوى الثورية للمجتمع التى كانت تستطيع ان تكون متحدة ومندمجة لحق النظام القديم ، واذا كان كل شيء يسمى نحو تعزيز الفاصل ، فى وعي الجماهير ، ما بين « نحن » الكادحين و « هم » المستثمرين ومعهم السلطة والكنيسة المدافعين عنهم ، فان الجهد الآن موجه نحو غرس « نحن » اخرى تماماً في الوعي و نحو تمسكها .

يعير لينين كذلك اهتماماً كبيراً لولادة ملامح السيكولوجيا الجديدة في الموقف من سلطة الدولة . وقد كتب أن « الدولة التي كانت قرونا اداة لظلم ونهب الشعب ، اورثتنا كراهية وارتياب الجماهير الكبيرين تجاه كل دولة » (١) . وهذا الارث اثر ، ابان السلطة السوفيتية ، لدرجة ما على مسألة الجرد او الرقابة ، غير انه كان يجب التغلب ، خطوة خطوة ، على الموقف من رجالات الدولة ومن هيئات الدولة ، وكأنه الموقف « منهم » التي تعاكس « منا » . ويشير لينين الى ان الجماهير الواسعة لم تتحسن منجزات الحكومة السوفيتية والحزب فحسب ، وإنما اخطاءهما ايضاً ، وكأنها منجزاتها الخاصة واحتواها الخاصة ، وهذه ظاهرة تتضمن مغزى تقدمها هائلاً . « لقد باشروا بقوتهم الخاصة وبأيديهم انفسهم بعمل خارق في صعوبته وارتکبوا الوف الاخطاء وعانونا من كل خطأ . وكل خطأ كان يبدع ويقوى ... » (٢) .

في السنوات التي تلت اكتوبر ، كما قبله ، كان اهتمام لينين ثانية بعمليات ومظاهر السيكولوجيا الاجتماعية ذا وجهة محددة

(١) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، صفحة ١٨٤ .

(٢) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٧ ، صفحة ١٤١ .

إلى أعلى مستوى ، وكل هذا مهم بالنسبة له لا كثيء قائم بذاته  
إبدا ، وإنما كدليل على حالة القوى الثورية وشروط لابد منها  
ج gioia للذود عن قضية الثورة وتطويرها . ولكن اذا كانت قليلة  
جدا ، فيما قبل الثورة ، تلك العادات والتقاليد الراسخة التي  
تشكل قيمة من وجهة نظر « علم الثورة » والتي كانت موجهة نحو  
التغلب على اكثريه العادات والتقاليد للمجتمع انذاك ، فانه بعد  
اكتوبر ، يدوى على نحو أقوى وأقوى الدافع لوضع وتفويه الخلق  
السيكولوجي الجديد والقواعد السيكولوجية الجديدة . ان هذا  
المضالل العظيم ضد خمول اي شيء في الحياة اليومية لما قبل  
الثورة ، يصبح الآن مناضلا لتحويل الجديد الى عادة ، الى حياة  
يومية . وهكذا فقد كتب بأنه « يجب ان تعتبر من المجزات ما دخل  
في الثقافة والحياة اليومية والعادات فقط » (١) .

وهذا يشير الى ان الفرق ما بين التطورات للسيكولوجيا  
والأخلاق السيكولوجية يمكن ان يكون ، بالنسبة للسيكولوجيا  
الاجتماعية الماركسية - اللينينية ، مجرد شيء نسبي ، وأهمية هذا  
او ذاك ترتبط كلية بالشروط التاريخية - المحددة .

---

(١) ف. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٥ ، صفحة ٣٩٠ .

## ٧ - السيكولوجيا والثورة

لقد رأينا كيف أن نينين كان يهتم بظواهر السيكولوجيا الاجتماعية كثورى ومن أجل مهام الثورة فقط . ولهذا بالضبط فان أبحاثه كانت تتضمن ، على الفالب وحتى بشكل استثنائى تقريبا ، تلك الظواهر الاجتماعية السيكولوجية التي تنتسب الى فئة الظواهر المتغيرة والдинاميكية ، والتي غالبا ما يسمونها باصطلاح « المزاج » ، لا الى الفئة الأخرى الثابتة نسبيا والتي يطلقون عليها اسم « الخلق السيكولوجي » أو « الطبيع » لهذه او تلك من الأوساط الطبقية او المهنية او الأخلاقية وكل الأوساط الأخرى . ان علم السيكولوجيا الاجتماعية لا يقيم هوة ما بين هاتين الفئتين من الظواهر . ولكنه ، على اية حال ، يقيم فرقا نسبيا بينهما .

اذا قرانا مؤلفات ف. ا. لينين من الفلاف ، الى الفلاف ، فاننا سنجد ان كلمة « مزاج » قد استعملت فيها عشرات المرات . وبالاضافة الى ما تم الاستشهاد به اعلاه ، سننوه ، على سبيل المثال ، الى ان لينين قد لجأ منذ عام ١٨٩٥ الى ذلك المفهوم بمناسبة سفره الى اوريխوفو - زويغو : « ان اكبر اقسام هو اقسام الشعب الى عمال وبورجوازيين . والعمال ، لهذا مجبولون

على المعارضة لدرجة ما » (١) . وإذا جمعنا كل استعمالات لينين الكلمة « مزاج » ، فسنحصل على حزمة لا يستهان بها .

ولكن من الخطأ طبعاً أن نحصر القضية بهذا المصلح أو ذاك .. فلدى لينين كلمات أخرى استعملها مراراً . مثلاً « الفريزة » ( الفريزة الطبقية والفريزة الثورية ) ، وهذا المصطلح يستعمل بمعنى قريب جداً من مصطلح « العفوية » المستعمل كذلك على نطاق واسع جداً في أقوال لينين . وإلى جانب هذا ، لا بد من التنبؤ إلى المفاهيم التي استخدمها لينين : « البدية » ، « الشعور » ، « الطاقة » ، « الرغبة » ، « الحماس » ، وكذلك « التعب » ، « الغضب » ، « الكراهة » ، « الخمول » وما شابه ذلك .

« الطبقة العاملة اشتراكية - ديمقراطية بشكل غريزي وعفوی » (٢) . « مرحلة تكديس الطاقة الثورية » (٣) . « موجة الميجان الشعبي » (٤) . « سينهض مئات الآلاف من العمال الذين لم ينسوا التاسع من يناير « السلمي » والمعطشون بشوق إلى التاسع من يناير المساح » (٥) . « العمال انفسهم يسيرون بشكل عفوی على تلك الخطة بالضبط . لقد اجتازوا بحماس زائد ثورة أكتوبر ونضال ديسمبر » (٦) . إن الاوهام الملكية لل فلاحين « غالباً ما كانت تشن طاقتها .. وقد خلقت حلماً فارغاً حول

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٦ ، صفحة ٩ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٢ ، صفحة ٨٦ .

(٣) المصدر السابق ، صفحة ٢٢٥ .

(٤) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٥ ، صفحة ٢٢ .

(٥) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١١ ، صفحة ٢٧٠ .

(٦) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٧١ ، صفحة ٤٠ .

الارض الالهية(١) » . « في حال وجود الجماهير غير الواعية والحالة والتردد ، لا يمكن احداث اي تغيير نحو الاحسن ... . وبدون اهتمام ووعي ونشاط وفعالية ومبادرة الجماهير لا يمكن عمل شيء اطلاقاً لافى هذا الميدان ولا فى غيره(٢) » . « ان النفسية البورجوازية الصغيرة الحالة ، التي غالباً ما كانت تسود في بعض اتحادات سويسرا ، تزول ويحل محلها مزاج كفاحي .. لقد صمد العمال متكاففين (٣) » . « السخط المشترك للجماهير الفائض عن الحد وهيجانها ضد البرجوازية وحكومتها (٤) » . « حقد الجماهير من جراء الحرب اللصوصية التي استؤنفت من جديد ، قد نما طبعاً بشكل اسرع واشد (٥) » . « لا يمكن قيادة الجماهير الى حرب لصوصية بمقتضى معاهدات سرية ، ثم الاعتماد على حماسها ... ولا يمكن اثارة البيطولة في الجماهير ، دون قطع الصلة مع الامبرالية (٦) » . « الشعب لا يستطيع ولن يتضرر بصبر وسلبية (٧) » . « بروليتاريا بتر وجراد .. سوف ترى ثيرت مخزنة قواها ومستعدة للمواجهة(٨) » . « توجد اعراض لنمو الخمول واللامبالاة . هذا مفهوم . وهذا لا يعني تدهور الثورة ، كما يصرخ الكاذب وابواقهم بل تدهور الایمان بالقرارات والانتخابات . الجمهور يطلب في الثورة من الاحزاب القائدة الافعال لا الاقوال ، الانتصار في النزال لا الاحاديث (٩) » . « ينمو

(١) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، صفحة ١٧٧ .

(٢) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، صفحة ٣٦٤-٣٦٥ .

(٣) المصدر السابق ، صفحة ٣٩٧-٣٩٨ .

(٤) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ ، صفحة ٤٢٩ .

(٥) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، صفحة ٦٧ .

(٦) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، صفحة ١٩٧ .

(٧) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ ، صفحة ٢٢٣ .

(٨) المصدر السابق ، صفحة ٢٢٣ .

(٩) ف.أ.لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٤ ، صفحة ٣٨٧ .

السطخ والهيجان والحدق في الجيش وبين الفلاحين العمال (١) .  
ان حل المسألتين القومية والزراعية يعطى « انفجاراً حقيقياً في  
الحماس الثوري بين الجماهير (٢) .

ان هذه المجموعة لتلك التراكيب المتنوعة في أقوال لينين قد تم  
ابرادها لنوضح مرة أخرى غنى وسعة افكاره الاجتماعية –  
السيكولوجية . فبدون ذلك الوصف وتلك اللمسات ، لا يمكن لنا  
ان نتصور لينين الكاتب الاجتماعي وللينين الثوري .

من السهل ان نلاحظ ان الحديث هنا يدور في غالب الاحيان  
حول التطورات السيكولوجية لدى الطبقات والجماهير . ان  
الдинاميكية السيكولوجية تشير اهتمام لينين بشكل رئيسي . وهو  
يكتب بشكل اندر واقل بكثير حول هذه او تلك من الملامع  
الثابتة في الخلق السيكولوجي سواء للطبقات الكادحة الرئيسية  
او لمختلف الفئات الاجتماعية والجماعات والمهن . وملحوظات لينين  
هذه لا تعطى لوحة متكاملة كما في ميدان التطورات والتغيرات  
الاجتماعية – السيكولوجية ، ولكنها مهمة جدا احياناً ، ولا سيما  
ان لينين يسجل تلك الصيغ السيكولوجية الثابتة التي على  
الحركة الثورية ان تحظمهما . وعلى اية حال ، فانها تستطيع  
ذلك ، وفي احياناً نادرة ان تعتمد عليهما . وفي النهاية ، بعد  
انتصار الثورة الاشتراكية ، كما رأينا ، يركز لينين اهتمامه على  
ان تتسرب قضيتها في جسد الجماهير ودمها ، ولأن تتجسد  
هذه القضية في شكل عادات سيكولوجية متينة .

فيما مر خصصنا مكاناً رئيسياً لوصف لينين لسيكولوجيا  
الجماهير الكادحة . ولكن يوجد لديه ملاحظات واسارات لا تقدر  
بignum بالنسبة للمؤرخ تمس سيكولوجياً البورجوازية . وهكذا ،

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٢٢٩ .  
(٢) المصدر السابق ، صفحة ٢٢٩ .

فقد نوه لينين أكثر من مرة الى الفوارق السيكولوجية ما بين البرجوازية الصغيرة والكبيرة ، منها أثر ماركس الى ارتقاء البرجوازية الصغيرة ما بين الثورية المفرطة والرجعية . « البورجوازيون رجال اعمال ، رجال حساب تجاري ضخم ، معتادون على اتخاذ موقف علمي صارم من قضايا السياسة ، وهم يشكون بالكلمات ويعردون من أين تؤكل الكتف<sup>(١)</sup> » . وفي عام ١٩٠٥ ، كتب لينين عن البورجوازية كلمات يمكن لها ان تنسب الى كثير من المراحل التاريخية الأخرى : « ان اعتراف البرجوازية بالثورة لا يمكن ان يكون صادقا ، وذلك بغض النظر عن الاخلاص الشخصى لهذا او ذاك من ايديولوجيى البورجوازية . والبورجوازية لا تستطيع الا ان تحمل معها الطمع والتناقض ، التجارة والجبل الرجعية الصغيرة الى تلك المرحلة العليا من الحركة<sup>(٢)</sup> ». واذ يفضح لينين ايديولوجيى الليبرالية البورجوازية ، فإنه ينظر الى مضامينها السيكولوجية . وهكذا ، فحينما تنازلت البورجوازية للنبلاء في السياسة ، كانت ميالة سيكولوجيا لأن تغدر لهم ذنوبهم ولأن تتحسّس موقفها الخاص ، كما لو انه تأدب خاص للروح الليبرالية . « ان منطقا ليبرايليا كهذا ، هو شيء لا مفر منه سيكولوجيا : يجب ابراز نبلائنا كافية ، وذلك لكي نصور تفاهة التراجع عن الديمقراطية تجاه امتياز النبلاء . وفي وضعية البورجوازية ما بين المطرقة والسنдан ، لا مفر سيكولوجيا كذلك من التعبير المثالى الذى تستعملها الان بذلك الابتدال ليبرايتنا عامة وفلسفتها المفضلون خاصة<sup>(٣)</sup> » .

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، صفحة ٢٥ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١١ ، صفحة ١١٧ .

(٣) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٢ ، صفحة ١١٧ .

اذا كان النضال البورجوازى في سبيل الحرية يتميز ، حسب قول لينين ، بالتناقض وبالحلول الوسط ، فإنه من هنا تنجم تيارات ما بين مثقفى روسيا ما قبل الثورة ، على الرغم من انهم بأكثريتهم كانوا بورجوازيين من حيث المنشأ . فمن ناحية ، هناك « المثقفون الثوريون المنحدرون بصورة رئيسية من هذه الطبقات ، وقد ناضلوا ببطولة في سبيل الحرية(١) ». ومن ناحية اخرى ، التكيف وخدمة حاجات الحكم المطلق والبورجوازية . ويكتب لينين « تلكم هى سيكولوجيا المثقف الروسي : هو قوله ، راديكالي حكيم ، وهو فعل ، موظف لليم(٢) ». غير أن لينين نوه أكثر من مرة ، بأنه من الطبيعي والحتى ظهور النزاعات ما بين المثقفين البورجوازيين والبورجوازية . مثلاً « ان عدم رغبة المثقفين بالسماح باستصغار شأنهم كمأجورين بسطاء وكبائعين لقوة عملهم .. كان يؤدى دائماً ومن وقت لآخر ، الى نزاعات مابين رجالات الاعمال وما بين الاطباء الذين قدموا استقالتهم بشكل جماعي – وما بين التقنيكيين في احيان اخرى وهكذا (٣) ... »

من الممكن ايراد غير قليل من الملاحظات السيكولوجية اللينينية التي تتناول تلك الفئات الاجتماعية مثل المستخدمين (الموظفين) والعسكريين ورجال الدين .

ان الملاحظات التي تتناول العسكريين ممتهنة كمقارنة ما بين طبيعة روح الجيشين القىصرى والsovietى ، وكذلك كاشارات منذ ما قبل الثورة الى التعاون الاجتماعى – السياسي الواقع بلا هواة ما بين العسكريين . ان الحكومة كلما استخدمت قواتها ضد السكان على نحو اكتر ، كلما انجذبت هذه القوات نحو

(١) المصدر السابق ، صنفة ٢٧٠ .

(٢) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٤ ، صنفة ٢٧٩ .

(٣) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٥ ، صنفة ٢٢٠ .

الحياة السياسية بشكل لا مفر منه . وعن الجيش المضاد للثورة يحدث بشكل ثابت ، كما يقول لينين ، انفصال جملة من المناضلين في سبيل الثورة أولاً ، وجماهير المحايدين ثانياً . وبتعبير آخر ، فإن الحكومة ، اذ ترمي بالجنود ضد الثورة ، فإنها « ترفع للتضال اكثر الناس تائراً من الناحية السياسية » ، – والنضال سيئورهم ويحركهم وبحببهم (١) » . ونحوه ، بهذا الصدد ، الى تلك الناحية السيكولوجية التي أصبحت معروفة بفضل الادب والمسرح والفن : لقد اجمل لينين في بعض كلمات انعطاف الشعور ، لدى الجماهير الشعبية ، الذي سببه مرأى العسكريين : « نحن نعلم ، بأنه يرتفع الان لدى الجماهير الشعبية صوت آخر ، انهما يقولون لأنفسهم : الان ، لا مبرر للخوف من شخص يحمل بندقية (٢) » ..

انها لمobre تلك الاوصاف التي يسبغها لينين على خصال الموظفين الراسخة في روسيا ما قبل الثورة وكذبذباتهم السياسية في عام ١٩١٧ .

ومن جملة كل ما قاله لينين عن الاكليروس ، سنوه هنا الى ملاحظة واحدة فقط . لقد اعاد لينين انتباها خاصاً الى شخصية قيسس القرية . وقد كتب في عام ١٩٠٨ : « لماذا بدا قيسس القرية ، ذلك الشرطى للأرثوذكسيّة الحكومية ، الى جانب الفلاح اكثر من الليبرالية البورجوازية ؟ لأن على قيسس القرية ان يعيش مع الفلاح جنباً الى جنب ويرتبط به في الف حالة ، وحتى ان يلبس أحياناً – وذلك في ظل الملكية الفلاحية الصغيرة القساوسة على ارض الكنيسة – اهاب فلاحاً حقيقياً ... وعلى هذه الصورة ، يتضح انه ليصعب على اكثر القساوسة ، رجعية ، اكثر

(١) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١١ ، صفحة ٣٥٠ .

(٢) ف.ا. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٥ ، صفحة ٢٦٩ .

ما يصعب على المحامي المثقف او البروفيسور ، ان يفرط بالفللاح  
لصالح الملوك (١) » .

من المعروف جيداً ان لينين تحدث كثيراً عن وضع المرأة في روسيا ما قبل الثورة ، وعن دور المرأة في الحركة البروليتارية الثورية وبناء الاشتراكية . وتصادف ضمن هذه الأقوال افكار قيمة بالنسبة للسيكولوجى . وقد كتب في عام ١٩١٦ : « ان النساء البروليتاريات لن ينظرن بشكل سلبى الى البورجوازية المسلحة جيداً وهى تطلق النار على العمال المسلمين بشكل ردئ او العزل من السلاح (٢) » . وفي عام ١٩٢١ كتب لينين ، متحدثاً عن تحرر المرأة من العبودية البيئية ، بان ذلك الانتقال صعب « لأن المسألة هنا تدور حول تغيير « انظمة » متصلة ومأولة وجامدة ومتصلبة على أكثر ما يكون (٣) » .

ان القضية لا تنحصر طبعاً في أن نورد هنا كل الاوصاف التي سبّفها لينين على الجماعات والفتّات والطبقات في المجتمع . المهم فقط أن نبين أن هنالك هدفاً يتخلل كل مؤلفاته العلمية – الثورية ، وهو معرفة ومراعاة الخصائص والملامح المميزة لسيكولوجيا كل فئة وكل مهنة وكل طبقة على الاخر . وانها نهاية ، خلال ذلك ، هذه الملاحظة التي ابداها لينين : « يوجد طبعاً استثناءات شخصية عن نماذج الجماعات والطبقات وستيقى دوماً ، ولكن النماذج الاجتماعية باقية (٤) » .

ينبغي الوقوف خاصة على ذلك الجانب من الميكولوجيا الاجتماعية الذي يتعلق بالمسألة الوطنية .

(١) ف.و. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٧ ، ص ١٢ .

(٢) ف.و. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، ص ١٣٧ .

(٣) ف.و. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٢ ، ص ٣٦٩ .

(٤) ف.و. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، ص ٢٠٧ .

في أحد الأيام ، وبمناسبة قول الاشتراكي الإيطالي ليستاري مؤكداً : « نحن نعرف سيكولوجيا الشعب الإيطالي » ، أطلق لينين كلمات تاريخية هامة : « أنا شخصياً لم أتجاسر أن أؤكد هذا بالنسبة للشعب الروسي (١) ». وللينين ، لينين الثوري الروسي العظيم لم يقدم على التأكيد بأنه يعرف سيكولوجيا الشعب الروسي ! ان وراء هذه الكلمات تختفي أشياء كثيرة .

قبل كل شيء ، تختفي وراءها الفكرة القائلة بأنه في كل ثقافة وطنية توجد ثقافتان متناحرتان ، أو بتعبير آخر ، لا يوجد ولا يمكن أن يكون هنالك سيكولوجيا واحدة لجامعة سلالية كالامة . وبعد ذلك ، فان وراء هذه الكلمات تختفي الفكرة القائلة ، بأن ابراز ملامح مشتركة ما تشمل الامة باسرها يهدف الى غرس الوطنية والقومية البورجوازية في الروس ، الى الدعوة لاخدام الوعي الثوري لدى الجماهير . ونربما كان اهم شيء ، هو ان الخصائص القومية ، في حال التأكيد عليها باستمرار ، لا تؤدي الى تكافف الحركة الثورية العالمية ، وانما الى تشتتها . وهذا ، من بعض الجوانب ، لا يختلف عن مسألة اخضاع « القضية الروسية المشتركة » ، كما يكتب لينين ، لتلك النظرية الفاسدة « التي تجعل البيتيرى ينسى موسكو ، والمسكوفى ينسى بيتر ، والكبيفى ينسى كل شيء ما عدا كييف (٢) » .

اما كيف طرح لينين مسألة الشعور القومي ، فان ذلك اوضح ما يكون في مؤلفه « حول العزة القومية لدى الروس » . « ان مصلحة العزة القومية للروس (على الا تفهم بشكل عبودي ) تتطابق مع المصلحة الاشتراكية للبروليتاريين الروس ! ولكن ما عداهم من

(١) ف.د. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٤ ، صفحه ١٧ .

(٢) ف.د. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٦ ، صفحه ١٣٩ .

البروليتاريين (١) » . « انتا مفعمون بشعور العزة القومية ، وذلك على وجه التحديد لأننا نكره بشكل خاص ماضينا الذليل .. وحاضرنا الذليل . ليس على أحد ذنب في أنه ولد عبدا ، ولكن العبد الذي لا يطمح الى حريته فقط ، وإنما يبرد ويزيز عبوديته ( كان يسمى ، مثلا ، قمع بولونيا وأوكرانيا والخ .. « دفاعا عن وطن » الروس ) ، ان عبدا كهذا هو مداهن وفظ ، يثير شعورا مشروعا من السخط والازدراء والاشمئزاز ! (٢) » .

ولقد رأى لينين في عملية تشابه الامم بتأثير الراسمالية اعظم تقدم تاريخي (٣) . وكان الى جانب حركات التحرر الوطني ، بقدر ما كانت موجهة ضد سيطرة امة على اخرى . ولكنه لم يكن ، خلال ذلك ، يفصل الحركة الوطنية عن مسألة الطبقات المشتركة فيها . وقد كتب لينين بأن « التموزجي بالنسبة للمرحلة الاولى ، هو استيقاظ الحركات الوطنية وجر الفلاحين اليها كأكثر فئات السكان عددا وأشدتها » صعوبة على النهوض » ، بقصد النضال لاجل الحرية السياسية عامة ولاجل الحقوق القومية خاصة (٤) » . وكان لينين ، خلال ذاك ، عدوا لا هوادة فيه لآلية مفاضلة ما بين امة واخرى ، اذ كان يرى في هذا تسمينا « لوعي الجماهير الجاهلة والمظلومة (٥) » .

ولقد اثارت اهتمام لينين في حركات التحرر الوطني تلك الجوانب السيكولوجية التي تتناول مشاعر الكرامة الوطنية المهانة واستثناء الامة المضهدة من مضطهديها من الدول العظمى وارتباطها بمضطهديها . ولكننا لا نجد على مدى مؤلفاته جميما ، او انتا

(١) المصدر السابق ، صفحة ٢٢٩ .

(٢) ف.إ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٦ ، صفحة ١٠٨ .

(٣) راجع ف.إ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، صفحة ١٢٥ .

(٤) ف.إ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٥ ، صفحة ٢٦ .

(٥) المصدر السابق ، صفحة ٨٥ .

لا نجد تقريراً أى شيء كان عن موضوعات تبحث في «السيكولوجيا السلالية»، أى حول الملامح المميزة للطبع أو الخلق السيكولوجي لهذه أو تلك من الشعوب والأمم. ونادراً نادراً ما يطلق كلمة عابرة عن مقدرة الشعب الروسي على التضحية أو عن ميل الالمان الى التفكير النظري. ولكن، بشكل عام؛ فان هذا المجال من القضايا غريب عن تفكير لينين. وفي الواقع، فقد كان دائماً يهتم بذلك المبدأ: «إذاء كل قضية سياسية جدية وعميقة حقاً، يجري التكتل حسب الطبقات، لا حسب الأمة»<sup>(١)</sup>.

وهكذا، فقد كان لينين يهتم أكثر من كل شيء بالتطورات في السيكولوجيا الاجتماعية. وبالنسبة اليه، فإن السيكولوجيا الاجتماعية لم تكن مطلقاً أساساً ثابتة أو نقطة انطلاق للظواهر الاجتماعية. فالسيكولوجيا الاجتماعية يمكن أن تغير، ويجب أن تغير. وليس هنالك مجال لتصوير عنصر وغرائز وأهواء الجماهير كشيء مثالى أو لجعلها قانوناً مطلقاً. وإن عملاً الحكومة التبصري قد عملوا بعد «لتأجيج الأهواء السينية للجمهور الجاهل»<sup>(٢)</sup>. لقد أثار اهتمام لينين في سيكولوجيا الجمهور ما كان يتفاعل مع الثورة أو كان نتيجة لها فقط.

وهذا مثال على الفهم اللينيني للديناميكية الاجتماعية – السيكولوجية. فقد كتب في مقالة «قبل العاصفة» في عام ١٩٠٦ ما يلى: «يقف الى جانب الثورة قسم متزايد دوماً من العمال وال فلاحين والجنود الذين كانوا البارحة فقط غير مبالين أو من جماعة المائة السود. وتحطم واحدة اثر اخرى تلك الاوهام، وتتساقط واحدة اثر اخرى تلك الخرافات التي جعلت الشعب الروسي سريع التصديق وصبوراً وساذجاً وخاضعاً

(١) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، صفحة ١٢٥ .

(٢) ف.أ. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٢ ، صفحة ١٣٢ .

وجلداً ومتسامحاً (١) » . وفي العام نفسه كتب لينين موضحاً : « إن الحزب العمالى يضع كل آماله في الجمهور ، ولكن في جمهور لا يخاف ولا يخضع لسلبية ولا يحمل التبرير بذلك ، بل جمهور واحد وصارم ومناضل (٢) » .

لقد بين لينين كيفية استخدام سيكولوجيا الجماهير لأجل التحطيم الجندي للعلاقات والأنظمة الاجتماعية السابقة . واكثراً بين في الوقت نفسه كيفية تحطيم كل ما من شأنه أن يعرقل ، كما هو موجود لدى الفلاحين كطبقة ، المسيرة الجامحة للثورة . وهكذا ، فقد بين لينين هذه السيكولوجيا الخاصة : الفلاحون كادحون ومالكون ، الفلاحون أناس عمليون وأعوان ، أناس حياة عفوية (٣) . يجب معرفة جذب واكتساب وتغيير نفسية ذلك الجمهور كأى جمهور آخر . وقد قال لينين محذراً فيما يخص العلاقة بالفلاحين ، لا تلجأوا إلى الأوامر ! (٤) .

ان معنى ملاحظات لينين الاجتماعية – السيكولوجية يعكس النظرة التي صاغها للعلاقات ما بين الحزب والجماهير الشعبية : « العيش في الصميم . معرفة الزواج . معرفة كل شيء . فهم الجماهير . معرفة التصرف . اكتساب ثقتها المطلقة (٥) » . هذا هو السبب في أن العالم السوفييتي عن السيكولوجيا الاجتماعية يتطلع إلى قوانينه وظواهره الخاصة ، أخذًا بعين الاعتبار ، كنقطة انطلاق ، تلك الملاحظات التي وضعها لينين على امتداد عصر كامل لأجل التطبيق التورى في إطار علمه الخالد ، « علم الثورة » .

(١) ف. ١٠. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٣ ، صفحة ١٢١-١٢٤ .

(٢) راجع ف. ١٠. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٤ ، صفحة ٢٢٠ .

(٣) راجع ف. ١٠. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٨ ، صفحة ٣٦١-٣٧١ .

(٤) راجع المصدر السابق ، صفحة ٢٠١ .

(٥) ف. ١٠. لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٤ ، صفحة ٩٧ .





